الحضارم في مهاجرهم

د. مسعود سعيد عمشوش

أستاذ الأدب العام والمقارن – جامعة عدن

٢٠١٧

يمنع ترجمة أو طباعة أو تصوير هذه المطبوعة أو أجزاء منها، من غير موافقة مسبقة من المؤلف

All rights reserved. No part of this publication may be translated, reproduced or distributed in any form or by any means, without the prior written permission of the writer.

محتويات الكتاب

١- مقدمة

٢-المهاجرين الحضارم في الأرخبيل الهندي: شيخ الكاف أنموذجا

٣-المهاجرين الحضارم في الحجاز: بقشان أنموذجا

٤- المهاجرين الحضرمي في شرق إفريقيا: الشيخ سالم باحبيشي أنموذجا

٥- صورة المولدين الحضارم في الأرخبيل الهندي

٦-الحضارم من المهجر الشرقي إلى المهجر السعودي في رواية (سالمين)

٧-المولدون الحضارم في رواية (فتاة قاروت)

٨- قراءة في (رحلة جاوة الجميلة)

مقدمة

يعود اهتمامي بالهجرة الحضرمية إلى تسعينيات القرن الماضي، حينما قمت بكتابة عدد من الدراسات والمقالات عنها وترجمت الجزء المتعلق بالمهاجرين الحضارم في الأرخبيل الهندي من كتاب المستعرب الهولندي فان دن بيرخ (حضرموت والمستوطنات العربية في الأرخبيل الهندي). وقمت كذلك بكتابة ثلاثة دراسات عن ثلاثة نماذج من المهاجرين الحضارم الذين نجحوا في التوفيق بين المشاركة الفاعلة في تنمية أرض المهجر وبين المشاركة الفاعلة أيضا في تنمية وطنهم الأم أو أرض الآباء والأجداد، ورأيت أنها شاركت بشكل أو آخر في تغيير حياة كثير من الناس في حضرموت وخارجها، وهم: السيد شيخ بن عبد الرحمن الكاف والمهندس الشيخ عبد الله أحمد سعيد بقشان والشيخ سالم عبيد باحبيشي.

وإضافة إلى تلك الدراسات الثلاث، يتضمن هذا الكتاب دراسة مهمة أنجزتها سنة ٢٠٠٢ عن (صورة المولدين الحضارم في الأرخبيل الهندي)، وقراءة لرواية (سالمين) التي نشرها عمار بطويل سنة ٢٠١٤، بعنوان (الحضارم من المهجر الشرقي إلى المهجر السعودي)، وقراءة بعنوان (المولدون الحضارم في فتاة قاروت) تناولت فيها الرواية التي كتبها أحمد السقاف سنة ١٩٢٨. وأخيرا يحتوي الكتاب على قراءة لكتاب الشاعر صالح بن علي الحامد (رحلة جاوة الجميلة) الذي استعرض فيه جوانب عدة من حياة الحضارم في اندونيسيا.

وأتمنى أن يلقى القارئ بعض الفائدة أثناء تصفحه هذا الكتاب الالكتروني المتواضع، الذي أتمنى أن أستطيع يوما ما نشره ورقيا.

والله من وراء القصد

أ.د. مسعود عمشوش

عدن يناير ٢٠١٧

المهاجر الحضرمي في سنغافورة

شيخ الكاف أنموذجا

منذ أقدم العصور ظل الإنسان الحضرمي يعشق السفر والترحال. وأينما اتجه أخذ معه قيمه وعاداته الثقافية والإنسانية العريقة التي مكنته من النجاح في التعامل مع الآخرين وكسب ثقتهم واحترامهم، وهذا ما مكنه من الإسهام في نشر الإسلام في بقاع كثيرة من العالم، ومن تكوين ثروات ضخمة استطاع بواسطتها المشاركة في تنمية وطنه والبلاد التي هاجر إليها. وهناك كثير من الأسماء التي نجدها لمغتربين يمنيين استطاعوا بفضل نجاحهم الباهر أن يتركوا بصماتهم في كل أرض نزلوا بها، وأصبحوا رموزاً هناك وفي وطنهم. فمن منا لم يسمع عن ابن محفوظ أو العيسائي أو بقشان أو العمودي أو الكاف؟ وإيمانا منا بضرورة الانتقال من الحديث العام عن تاريخ الهجرة الحضرمية ودور المغتربين في التنمية إلى تسليط الضوء على بعض النماذج

البارزة من المهاجرين اليمنيين الذين جسدوا نجاح المغترب اليمني في خدمة بلاد المهجر ووطنه، اخترنا في هذه الدراسة التركيز على دور شيخ بن عبد الرحمن الكاف الذي يعد المؤسس الفعلي للثروة الكافية في سنغافورة.

في الجزء الأول من هذه الدراسة سنحاول أن نقدم نتفاً من سيرة السيد شيخ بن عبد الرحمن الكاف الذي لم يحظ حتى الآن باهتمام أي باحث بعكس نجليه أبوبكر بن شيخ الكاف وعبد الرحمن بن شيخ الكاف. فقد قام علي أنيس الكاف وجعفر السقاف بتأليف كتاب عن أبي بكر بن شيخ الكاف الذي لا يعد مغترباً، وقام علي أنيس الكاف بتكريس كتاب آخر لعبد الرحمن بن شيخ الكاف.

وفي الجزء الثاني سنبيّن كيفية إسهام شيخ الكاف في تأسيس النهضة التجارية والعمرانية في سنغافورة التي هاجر إليها في نهاية الخمسينيات من القرن التاسع عشر. وسنكرس الجزء الأخير لتقديم الدور الذي قام به مؤسس الثروة الكافية في وضع اللبنات الأولى للنهضة الاقتصادية والسياسية والتعليمية

والعمرانية التي شهدها وادي حضرموت منذ مطلع القرن العشرين. وسنشير في نهاية الدراسة إلى المصاعب والسلبيات التي التصقت بتجربة المغترب الرائد شيخ الكاف في الإسهام في التنمية في الوطن وفي أرض المهجر.

أولا: نتف من سيرة شيخ الكاف

ولد شيخ بن عبد الرحمن بن أحمد الكاف في مدينة تريم سنة ١٨٣٩ (١٢٥٥هـ). وعاش طفولته مع أبيه وإخوته الستة أبي بكر وعلي وأحمد وحسين وعبد الله ومحمد "على فقر مدقع". وفيها تعلم القرآن وحفظه. وحضر الدروس الفقهية لعدد من علماء حضرموت في تريم وسيئون وحريضة والخريبة حيث أقام مدة من الزمن عند العلامة الشيخ عبد الله أحمد باسودان وحفظ على يديه كتاباً في الفقه:(الإرشاد). ولأن خطه كان جميلاً فقد نسخ بيده هذا الكتاب نحو سبعين نسخة وباعها ليكسب لقمة العيش.

ومثل كثير من الحضارم في تلك الفترة شجع الوالد عبد الرحمن الكاف جميع أولاده – باستثناء عبد الله- على السفر

إلى جزر الأرخبيل الهندي. وقد توفي كل من أبي بكر وعلي وأحمد في جاوه. وليس لهم أي دور يذكر في تكوين الثروة الكافية. أما حسين فمن المؤكد أنه قد مارس التجارة في سنغافورة وجاوة. وبما أن وصول أول شخص من أسرة الكاف إلى سنغافورة يعود إلى سنة ١٨٥٢ فنرجح أن يكون حسين هو أول من استقر بها. وبما أنه لم يترك عقباً حينما توفي بجاوه سنة ١٢٨٠ (١٨٦٣) فقد آلت ممتلكاته لأخويه محمد وشيخ. وقد كتب محمد بن هاشم في (الدور الكافي: تاريخ الثروة الكافية ورجالها، ص ٥٩) ما يلي: "وكان لهؤلاء الأخوة الأشقاء أخ من أبيهم يدعى حسينا قد هاجر إلى جاوة قبل محمد فساعده الحظ هناك وأقبلت عليه الثروة تخطبه؛ فامتلك بسنغافورة عقارات واتسعت تجارته غير أن الأجل لم يمهله حتى يصل إلى آماله التي يطمح إليها، فعاجلته المنية، وتوفي بجاوة حوالي ١٢٨٠ .ولم يترك نسلاً فوضع إخوته أيديهم على ما ترك من ثروة، وكان بمثابة أساس شيدت عليه هذه الثروة الكافية المباركة". وفي السنة نفسها ١٢٨٠ توفي والدهم في حضرموت.

ووصل محمد سنغافورة نهاية سنة ١٢٧٢ .(1855)وبعد أن مكث بها مدة قصيرة غادرها إلى مدينة سرباية في جاوة. وفيها بدأ يمارس التجارة "برأس مال هو النزاهة وعلو الهمة وقوة الإرادة". وقد لحق به أخوه علي وشاركه التجارة.

وفي سنة ١٢٧٥ (١٨٥٩) غادر شيخ بدوره حضرموت متوجهاً إلى سرباية للعمل عند أخيه محمد. لكنه، حينما وصل إلى سنغافورة في طريقه إلى جاوة، استلم من أخيه محمد رسالة يأمره فيها أن يستقر في سنغافورة ويعمل بها.

وعندما ازدهرت تجارة شيخ الكاف في سنغافورة انتقل إليها محمد. ولإدارة الأعمال في سرباية أحضرا من حضرموت عليا ابن أخيهما الأكبر عبد الله الذي شرع في إدارة الأموال الطائلة التي ترسل من سنغافورة وجاوة إلى حضرموت. لهذا نجد في بعض الوثائق القضائية لجزيرة سنغافورة أن الإخوان الثلاثة شيخ ومحمد وعبد الله هم الملاك الأصليين لعقارات الكاف في سنغافورة.

وبعد وفاة الأخ الأكبر عبد الله في حضرموت سنة ١٨٧٩ ١٢٩٧هـ اضطر محمد للعودة إلى حضرموت وتولى زعامة بيت الكاف هناك خلفاً لأخيه المتوفي. وانفرد شيخ بإدارة تجارة وأملاك الكاف في شرق آسيا .ولمساندته أحضر من حضرموت ابنه أحمد وعبد الرحمن ابن أخيه عبد الله.

وبعد بضع سنوات من عودته إلى حضرموت أصيب محمد بحالة نفسية و"تخلى عن الدنيا واعتزل الناس بمسجد واكتفى من اللباس بشملة يستر بها عورته فقط. وتمادى بذلك طوال السنين بسبب جذبة جذبها إثر فقدانه لصديق له توفي فجأة". ويقول محمد بن هاشم في (الدور الكافي): "في السنوات الأخيرة من عمره نبذ السيد محمد الكاف الدنيا بتاتاً وراء ظهره وابتعد عن جليلها وحقيرها ونفض يديه نفضاً تاماً عما لصق بهما من ذراتها وهبائها وركن إلى الإنزواء والخمول والاعتكاف في زوايا المساجد وقاعات المعابد ولم يشأ أن يخاطبه أحد من الناس وما هم عليه، واعتراه شذوذ اجتماعي حمل الناس على أن يصموه بوصمة الجذب والخلط العقلي،

وهكذا الناس حديثاً وقديماً لا يعتبرون من العقلاء إلا من اندفع في تيارهم ورقص على موسيقاهم وأحب ما يحبون وكره ما يكرهون."

وفي سنة ١٣١٠هـ (١٨٩٢)، وبعد أن أمضى خمساً وثلاثين سنة في الغربة، عاد شيخ الكاف نهائياً إلى حضرموت مستصحباً نجليه الصغيرين عبد الرحمن وأبا بكر، وذلك بعد أن عهد بإدارة أعمال الكاف التجارية في سنغافورة لابن أخيه: عبد الرحمن بن عبد الله الكاف، ويساعده فيها ابنه احمد بن شيخ الكاف.

وفي سنة ١٣٢٨ (١٩١٠) توفي شيخ بن عبد الرحمن الكاف عن عمر يناهز الثلاث والسبعين سنة. وقد أنجب تسعة من الأبناء هم: أحمد الأكبر وعلوي وحسين وعبد الرحمن وأبوبكر وحسن وعبد القادر وعمر وأحمد الأصغر، وثلاث بنات هن: علوية وفاطمة وسيدة.

ثانيا: شيخ الكاف وأرض المهجر (سنغافورة)

من المعلوم أن المهاجرين الحضارم وأحفادهم قد قاموا بدور مهم في مختلف نواحي الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والدينية في معظم جزر الأرخبيل الهندي منذ نهاية القرن الثامن عشر. وبفضل أخلاقهم وسلوكهم استطاعوا أن يكسبوا ود السكان المحليين، وكثير منهم اندمجوا وسطهم وصاروا جزءا من نسيج تلك المجتمعات التي استقروا وسطها .وقد مكنهم ذلك من نشر الدين الإسلامي في تلك البقاع وأن يتبوأوا عدداً من المناصب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية.

وفيما يتعلق بمدينة سنغافورة بالتحديد، من المؤكد أن الحضارم قد قاموا بدور مهم جداً في نشأتها وتنمية الحركة التجارية والعمرانية فيها. فعندما قرر الجنرال البريطاني ستامفورد رافلز إنشاء تلك الجزيرة/المدينة سنة ١٨١٩ كان يدرك دور الحضارم في تسيير التجارة في جزر الأرخبيل الهندي، وسعى إلى اجتذاب التجار الحضارم المستقرين في

جاوة إلى مدينته الجديدة. وبحلول عام ١٨٢٤ كان هناك نحو عشرين مواطناً حضرمياً في الجزيرة. وبما أنه كان يشعر أن الهجرة الحضرمية سوف تتزايد بشكل سريع قرر (ستامفورد) أن يحدد منطقة للجالية العربية (الحضرمية). وفي بيان لجنة الإسكان السنغافورية لعام ١٨٢٢ جاء ما يلي: ‘‘سوف يتم أخذ العرب ومتطلباتهم بعين الاعتبار، وأعتقد أنه من الأفضل أن يكون مقر إقامتهم بجوار مقر سكن السلطان.’’

لهذا نلاحظ أن من أهم ميزات الهجرة الحضرمية إلى سنغافورة كونها هجرة غير مباشرة. فكثير من الحضارم انتقلوا إليها من جاوة وبعد أن حققوا شيئاً من النجاح التجاري وتعرفوا إلى عادات المجتمع الملايوي وحظوا باحترامه، واستطاعوا أن ينشروا فيه الإسلام.

ويبدو أن أول من وصل إلى سنغافورة من الحضارم عام ١٨١٩ اثنان من التجار الأثرياء من سومطرة؛ وهما محمد بن هارون الجنيد وابن أخيه عمر بن علي الجنيد. وفي سنة ١٨٢٤ استقر في سنغافورة عدد من أفراد أسرة السقاف.

وتبيّن الوثائق الرسمية للجزيرة أن تاجراً من أسرة الكاف وصل الجزيرة سنة ١٨٥٢.

وسبق أن ذكرنا أن محمداً، الأخ الأكبر لشيخ الكاف قد وصل سنغافورة نهاية سنة (١٨٥٥). وبعد أن مكث بها مدة قصيرة غادرها إلى مدينة سرباية في جاوة. وحينما استقر شيخ بن عبد الرحمن الكاف في سنغافورة بأمر من أخيه محمد – سنة ١٨٥٩-توظف في إحدى مؤسسات التاجر الحضرمي سالم السري بمرتب شهري لا يتجاوز الثلاثين بوروم.

ولا شك أن شيخاً كان يتمتع بمواهب فطرية واستعداد وحدس عاليين أهلاه لتحقيق نجاح باهر وسريع في عالم التجارة بسنغافورة. إذ "سار لا يلتفت يمنة ولا يسرة بل ظل يغتنم الفرص إذا لاحت له، ويكد ويكدح ويحاول فينجح. وهو علاوة على أداء واجبه في وظيفته لم يرض أن يقف عند هذا الحد، بل طفق يبذل جهود الجبابرة في الاقتصاد، وفي العمل خارج وظيفته، والاستفادة من مركزه، وكذا الاعتبار بكل ما يمر أمامه، وابتدأ يراسل رجالاً في الخارج ويخدم آخرين،

وينصب نفسه (كوميشن). وموظفوه يعلمون ذلك منه ولكنهم لا يزالون حريصين عليه لحسن خدمته ونزاهته وقيامه بواجبه لديهم أتم قيام.''

وبعد أن لمس الأخ الأكبر – محمد- مدى اكتساب شيخ كل شروط ومقومات النجاح في التجارة، كتب إليه من سربابة وأمره أن يقدم استقالته من مؤسسة آل السري ويبدأ يعمل لحسابه الخاص. وقد حاول آل السري إقناعه بالاستمرار في العمل معهم واقترحوا أن يكون له راتب كبير بل وأن يجعلوه شريكاً لهم في تجارتهم، لكنه رفض ''شاكراً لهم حسن صنعهم وجميل معاشرتهم.''

وعندئذ اتفق الأخوان شيخ ومحمد على توحيد تجارتهما في سربايا وسنغافورة، وتبودلت بينهما البضائع، وسرعان ما ذاعت شهرتهما وتدفقت عليهما الأرباح والتوكيلات والتسهيلات من كل ناحية. ولم يتردد شيخ في اقتحام عالم العقارات. فاشترى كثيراً من الأراضي والمباني في مواقع كانت نائية من سنغافورة لكنها سرعان ما أصبحت في قلب

المدينة وتضاعفت إيجاراتها عشرات المرات في فترة قصيرة.

ثم تزايد بشكل سريع نشاط الكاف التجاري في سنغافورة. وأسهمت الأسرة في بداية تعمير المدينة، حيث قام آل الكاف ببناء عدد كبير من العمارات وقاموا بشق الطرق. وقاموا أيضا ببناء أحد الجسور الشهيرة هناك، وإحدى أجمل الحدائق، ومسجد الكاف. كما شارك شيخ الكاف في تأسيس أول مستشفى للفقراء بناه الحضارم بسنغافورة.

ويعد شيخ الكاف في سنغافورة من بين أوائل التجار اليمنيين الحضارم الذين بادروا إلى رصد جزء من ممتلكاتهم وثروتهم للأعمال الخيرية المتنوعة، إما المباشرة أو في إطار ما يعرف بالأوقاف. فهو فتح بيوته للضيوف العرب في كل وقت، ولا يضيق بأي ضيف ينزل عنده في طريقه من وإلى إندونيسيا، أو من وإلى حضرموت. وقد انتهى به الأمر أن جعل من إحدى عماراته وسط سنغافورة (دارا للغرباء) يأوي إليه المسافرون من وإلى الوطن .وتبين وصايا شيخ الكاف أنه

قد أوقف عددا من عماراته لـ(الغرباء) وطلاب العلم والمدارس في سنغافورة وتريم وسيؤن. ويؤكد الباحث أمين علي بن طالب في مقال له عن (الحضارم في سنغافورة Hadramis in Singapore) أن "معظم الأراضي التي تقع اليوم في الحي التجاري بوسط سنغافورة كانت ذات يوم ملكاً للأوقاف الحضرمية". أما فان دن بيرخ فيقول في كتابه (المستوطنات العربية في الأرخبيل الهندي ١٨٨٦) إن ٨٠% على الأقل من العقارات في الأراضي الخاضعة للحكم البريطاني [أي في سنغافورة] يمتلكها الحضارم المقيمون هناك.

وبسبب حجم الأعمال الخيرية للكاف في سنغافورة في نهاية القرن التاسع عشر، وبفضل مكانته التجارية اكتسب الكاف سمعة طيبة بين السكان المحليين بشكل عام، وصار اسم الكاف يضاهي في سنغافورة اسم البس في عدن. وتمكنت أسرة الكاف من المشاركة في الشؤون البلدية للجزيرة. وتذكيراً بدور شيخ بن عبد الرحمن الكاف في التنمية التجارية

والعمرانية في سنغافورة قامت السلطات هناك بوضع تمثال له من الشمع في متحف سانتوسا.

المصاعب التي واجهت الثروة الكافية في سنغافورة

بفضل حنكته وخبرته استطاع شيخ الكاف – خلال الثماني عشرة سنة الأخيرة من عمره التي قضاها في تريم – أن ينمي الثروة الكافية في شرق آسيا وحضرموت. فقد ظل يراقب عن كثب أداء الأبناء في تسيير دفة الأمور هناك، ويبعث لهم توجيهاته ووصاياه.(أنظر وصيته لابنه عبد الرحمن حفيد أخيه أبي بكر في الملحق رقم١) وقد استمر عبد الرحمن وأحمد يديران تجارة الكاف في سنغافورة إلى سنة ١٣١٥هـ حينما أمر شيخ الكاف بعودة ابنه أحمد بصحبة بقية أفراد العائلة. وفي سنة ١٣١٧ هـ أمر ابنه احمد وابن أخيه حسين بن عبد الله بالتوجه إلى سنغافورة بعد أداء مناسك الحج ليستلما زمام الأمور في سنغافورة من عبد الرحمن بن عبد الله الكاف الذي عاد إلى تريم. وقد عاد حسين – الذي لم يتحمل طبيعة الحياة في سنغافورة – إلى حضرموت سنة ١٣٢٠ هـ ، وعاد

أحمد سنة ١٣٢٣ هـ واستلم منه الإدارة عبد الرحمن بن عبد الله. وفي سنة ١٣٢٥ هـ أمر شيخ الكاف ابنه عبد الرحمن بن شيخ الكاف وحفيد أخيه حسين بن عبد الله بالتوجه إلى سنغافورة لإدارة الأعمال هناك.

ومع ذلك، من الواضح أن هناك عوامل عدة جعلت شيخ الكاف يواجه، رغم حنكته، بعض الصعوبات في إدارة أعماله في سنغافورة من حضرموت. فالعقلية الحضرمية كانت – وربما لا تزال- تفضل الإبقاء على إدارة الأعمال من قبل أفراد العائلة. كما أن شيخ الكاف، كان يرفض اللجوء إلى المحامين والمحاكم. وأوصى أولاده أن يفعلوا مثله ويتجنبوا "الدعاوى والمحامين والمحاكم."

ومع ذلك، بعد وفاة أبيهم شيخ الكاف مباشرة سنة ١٣٢٨هـ (١٩١٠)، اضطر الأبناء إلى تأسيس (شركة الكاف وشركاه) وسجلوا موادها ووثائقها في المحكمة العليا بسنغافورة.

كما أن شيخ الكاف لم يتحمس لإلحاق أبنائه بالمدارس الحديثة التي افتتحت في سنغافورة حينذاك أو إرسالهم إلى مصر أو

الغرب للتعليم، وفضّل، مثل معظم المهاجرين الحضارم في جزر الهند الشرقية -ولأسباب قومية ودينية- إرسالهم أو إعادتهم للوطن، وذلك لضمان تعلمهم لغتهم الأم ومبادئ وقيم عقيدتهم ووطنهم.

ولا شك أن طبيعة الثروة الكافية التي تقوم أساساً على تأجير العقارات والأراضي التي اشتراها شيخ بن عبد الرحمن الكاف في نهاية القرن التاسع عشر قد سهلت لهؤلاء الأبناء تسيير شؤون الثروة بشكل أو بآخر. إلا أنهم – مثل غيرهم من أبناء المهاجرين الحضارم- لم يستطيعوا بتلك العقلية والمؤهلات أن ينافسوا رجال الأعمال الصينيين والأوروبيين الذين أصبحوا سادة التجارة في سنغافورة (وجاوة) منذ مطلع القرن العشرين.

كما أصيبت ثروة الكاف في سنغافورة بخسائر وهزات عنيفة بسب القوانين التي اتخذتها السلطات المحلية بشأن ملكية الأراضي، وإيجارات العقارات، وإلغاء الإشراف العائلي على ممتلكات الأوقاف .وبسبب تلك القوانين الجديدة، ونتيجة

لاعتماد شيخ بن عبد الرحمن الكاف في وصاياه على أسس (الوقف الخيري والوقف العائلي) برزت عدد من قضايا توزيع الثروة بين الورثة من الأحفاد.

ثالثاً: شيخ الكاف والوطن

طوال فترة إقامته في سنغافورة، التي امتدت خمساً وثلاثين سنة، ظل شيخ الكاف يحتفظ بصلات وثيقة مع أرض الوطن. فهو، حينما بدأت الثروة تطل عليه لم ينس أبدا أفراد عائلته المحتاجين في حضرموت .وعلى الرغم من طموحه الشديد إلى مضاعفة رأسماله وأملاكه العقارية في سنغافورة، فقد دأب منذ السنوات الأولى من غربته على بعث الحوالات المالية إلى أهله للمساعدة والاستثمار. وأرسل أيضا الهبات للمساجد والمدارس والمؤسسات الخيرية والدينية الأخرى هناك. وحينما أطمأن إلى حجم ثروته وأصبح أحد أبرز الأغنياء في سنغافورة، وبما أنه كان – بعقليته التقليدية – يدرك أن «مال ما هو في بلدك، لا لك ولا لولدك»، فقد انتظم في تحويل مبالغ ضخمة إلى حضرموت؛ أولاً باسم أخيه عبد

الله ثم إلى أخيه محمد، وذلك بهدف استثمارها في الوطن، وذلك في القرن التاسع عشر!

ويؤكد محمد بن هاشم في كتابه (الدور الكافي، ص٦٢-٦٣) أن شيخ الكاف عاد ذات مرة من الشرق إلى تريم في حياة أخيه عبد الله، وسأله عما يفعل بالنقود التي يرسلها إليه من سنغافورة بعد المصاريف العائلية والضيافات والصدقات، فأمر عبد الله ابنه حسين بإحضار كيس وفتحه "وإذا هو مملوء بوثائق مشتريات نخيل وأطيان زراعية؛ وأخذ يقرأ: هذه وثيقة مكان كذا بثمن كذا، وهذه غراسة بثمن كذا، واستمر قارئاً إلى أن صاح أخوه شيخ: كفى كفى، يا لها من بركة عظيمة، افعل ما شئت أيها الأخ."

وبعد فترة قصيرة من عودته النهائية إلى تريم سنة ١٣١٠هـ مع أبنائه الصغار وجزء لا بأس به من ثروته قرر شيخ الكاف أن يطور استثمارات العائلة في حضرموت والتي تركزت أساسا في مجال الزراعة .إذ شرع في استصلاح أراض زراعية جديدة في ضواحي تريم، وأنفق على حفر

العديد من الآبار وتمهيد مجاري السيول وقنوات الري. لكن سرعان ما برزت عدد من العراقيل أمام تلك المشاريع الاستثمارية البسيطة: منها عدم وجود عملة يمكن الوثوق بها. لهذا قرر شيخ الكاف سنة ١٣١٥هـ/١٨٩٧م ضرب عملة من الفضة يتم التعامل بها محلياً بضمانته الشخصية سنة ١٣١٥هـ وهي عبارة عن ثلاث قطع فضية أم ٦ وأم ١٢ وأم ٢٤. وقد صدرت وثيقة تبين موافقة السلطان على ضرب عملة باسم الكاف يطلق عليها (خماسي الكاف). واستمر التداول بخماسي الكاف حتى سنة 1363هـ / ١٩٤٣م حينما فرضت بريطانيا الروبيات الهندية ثم الشلنات الإفريقية ١٣٧١ / ١٩٥١م في جميع محمياتها في جنوب اليمن.

ومن أبرز العراقيل التي تعرضت لها مشاريع الكاف الاستثمارية في الوطن في تلك الفترة: غياب الأمن وابتزاز سلاطين تريم وعسكرهم لهم. وقد ضمن محمد بن هاشم كتابه (الدور الكافي، ص٦٨-٦٩) سرداً لحادثة تبيّن مدى ما تعرضت له أسرة الكاف من ابتزاز (رسمي) في نهاية القرن

التاسع عشر. "ففي سنة ١٣٠٠هـ هاج عبيد الدولة ضد بيت الكاف وأخذوا يطلبون منه نقوداً، مصحوباً بطلبهم التهديد، وربما هجموا على بعض مستودعات التمر فكسروا بابها وأخذوا ما شاءوا منها، وكان بين الكاف وصالح بن عائض العامري رئيس العوامر اتصال وصداقة، فتصدى هذا لخفارة بيت الكاف وحط عدداً من رجاله في الجانب الشرقي من بيت الكاف تجاه مسجد الشيخ علي بمثابة خفراء .وغاض هذا الأمر السلطان محسن رحمه الله وصعد نفسه إلى أعلى مئذنة مسجد الشيخ علي وخاطب العوامر بالخروج من الدار فلم يرضوا. وأخيرا أمر عبيده فهجموا وتسوروا الدار ودخلوا على القوم وأخرجوهم قسرا. وبعد هذه الحادثة غادرت الأسرة الكافية تريم إلى ضواحيها الجنوبية وسكنت في بعض قراها ومكثت بها أسابيع قلائل حتى تدخل المصلحون بينهم وبين السلطان فعادوا إلى تريم بعد أن استلموا وثيقة تبرئهم من تبعة ما لعله يحدث بين السلطان والعوامر من جراء تلك الحادثة."

وفي سنة ١٩٠٠م تعرض شيخ الكاف لابتزاز مماثل يسرده المؤرخ الشاعر عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف في كتابه المخطوط: (بضائع التابوت في نتف من تاريخ حضرموت، ص١٦٠)، بشكل تفصيلي وشيق حيث يقول: ‘‘وفي سنة ١٣١٧ تكدر الجو بين سلاطين آل كثير وبين المثري الشهير السيد شيخ بن عبد الرحمن الكاف بسبب أنهم طالبوه بمال لم تسمح به نفسه .فحبسوه هو وولده حسين وبعض بني أخيه عبد الله ..’’. وقد صمم الكاف على رفضه دفع أي مبلغ إضافي. غير أن بعض أقاربه لم يتحملوا الوضع وقاموا بدفع المبلغ من جيوبهم دون علم شيخ الكاف الذي غضب لذلك وانتقل سرا إلى بلدة دمون التي تقع شرق تريم وتخضع للسلطان القعيطي. وقد تطورت المماحكات بين السلاطين وآل الكاف حينما استنجد الكاف بطالب بن جعفر بن سالم بن مرعي بن طالب . وكادت أن تشتعل رحى الحرب بين السلاطين وبين عدد من القبائل لولا تدخل آل عون وقبول طرفي النزاع بتوقيع اتفاقية طويلة يضمنها ابن عبيد الله كتابه)بضائع التابوت). ومن المعلوم أن الخلافات بين آل الكاف وبين سلاطين تريم

وعبيدهم تجددت بعد وفاة شيخ الكاف وتسببت إلى انتقال أبي بكر بن شيخ الكاف وعائلته نهائيا إلى سيؤون عام ١٩٢٩م.

الأعمال الخيرية لشيخ الكاف في حضرموت:

بعد فترة قصيرة من عودته النهائية إلى تريم سنة ١٣١٠هـ /١٨٩٢ قرر شيخ الكاف تخصيص ثلث من ثروته في سنغافورة للأعمال الخيرية الجارية، ووثق ذلك في وصيته الثالثة التي حررها في فاتحة شهر ربيع الأول من عام ١٣١٦ للهجرة أي قبل وفاته بثماني عشرة سنة. وتنص تلك الوصية على طريقة توزيع ذلك الثلث الموقوف؛ مثل صرف مبالغ وشراء أراضي لدور العلم (والأربطة) وطلبته في تريم وسيون، وتعمير سقايات لماء الشرب في أي مكان، وحفر قلوت للماء في طريق الشحر، وتجهيز دار وغذاء للغرباء في تريم. كما تضمنت الوصية أسماء نحو مئتي شخص وخمسين مسجداً مع المبالغ التي ينبغي أن تدفع لكل منها.

ويمكن أن نشير هنا إلى أن عدداً من أولاد شيخ بن الكاف، لاسيما عبد الرحمن وأبو بكر، قد أكملوا ما بدأه والدهم من

أعمال خيرية. فقد قام الأول، مثلا، بالإشراف على تأسيس مدارس الكاف في عدد من مدن حضرموت. وقام الثاني بالإشراف على افتتاح طريق السيارات بين وادي حضرموت والساحل، وبذل أموالاً طائلة في سبيل حمل القبائل المتناحرة على توقيع معاهدات السلام بينها وذلك قبل مجيء المستشار البريطاني هارولد انجرامس الذي استطاع أن يوظف جهود وأموال أبي بكر بن شيخ الكاف لصالحه.

الخاتمة

لا شك أن هذا العرض السريع لمسار مؤسس الثروة الكافية شيخ بن عبد الرحمن الكاف يساعدنا على إدراك الحجم الفعلي للدور الذي قام به المغتربون اليمنيون في القرن التاسع عشر في سبيل المشاركة في تعمير كثير من جزر الأرخبيل الهندي وتأسيس النشاط التجاري فيها، وكذلك نجاحهم في ترك سمعة طيبة بين السكان المحليين هناك، مما سهّل استقبال الموجات اللاحقة من المغتربين الحضارم، ليس فقط في تلك البقاع لكن

أيضا في مناطق أخرى من العالم، بما في ذلك سواحل شرق إفريقيا ثم الخليج العربي.

ومن خلال ما قام به شيخ الكاف من محاولات استثمارية في قطاع الزراعة في حضرموت استطعنا أن نلمس أن المغترب اليمني يحرص دائماً على استثمار جزء كبير من ثروته في وطنه، وذلك مهما كانت بسيطة وصعبة الظروف التي يمر بها هذا الوطن.

وفي الختام نتمنى أن يتأمل المغتربون اليوم، ومختلف الجهات المسؤولة عن المغتربين، في تجربة هذا المغترب الرائد، والاستفادة من نقاط قوته، والعمل على تجنب المصاعب والإخفاقات التي واجهته. فبذلك فقط يمكن أن نمكن المغتربين من القيام بدور فاعل في تنمية حضرموت.

المهاجرين الحضارم في الحجاز

بقشان أنموذجا

مقدمة

منذ فترة ما قبل الإسلام حضرموت بعلاقة جوار متينة مع أرض الحجاز وسكانه. فإذا كان كثير من أبناء الجزيرة العربية الحضارم قد شدوا الرحال إلى مناطق بعيدة من الكرة الأرضية للاستقرار فيها، والحياة وسط أهلها غير العرب، فكيف لا ينتقلون للعيش بين أشقائهم العرب في الطرف الآخر من رمال الربع الخالي؟

وفي فترة الفتوحات الإسلامية توثقت علاقات الحضارم بالحجاز، وذلك لأسباب دينية وثقافية وتجارية. ويؤكد المؤرخ محمد عبد القادر بامطرف أن أحفاد الحضارم الذين وصلوا الحجاز في تلك الفترة استقروا فيه، واندمجوا وسط سكانه. ويذكر منهم حصين بن

الحارث بن مسلم بن قيس بن معاوية الجعفي وكثير بن الصلت بن معدي كرب بن وليعة الكندي.

ومثل غيرهم من المسلمين ارتحل عدد كبير من الحضارم إلى الحجاز لطلب العلم في المدينتين المقدستين: مكة والمدينة، والتتلمذ على يد علمائها. وقد بلغوا بهما مراتب عالية في العلم مكنت بعضهم من تبوء مناصب مهمة في الحرمين المكي والنبوي: منهم عبد اللطيف بن أحمد باكثير قاضي قضاة الشافعية في مكة المكرمة (٩١١ هـ)، ومحمد بن أبي بكر الشلي الذي تولى التدريس في الحرم المكي عام ١٠٣٠هـ، وحسين بن محمد الحبشي الذي تولى الإفتاء للشافعية بمكة المكرمة (١٢٥٨هـ)، وعمر أبو بكر باجنيد المستشار الديني للملك حسين بن علي الذي درس في الحرم المكي، ومحمد سعيد بابصيل الذي تولى الإفتاء للشافعية ومشيخة العلماء في مكة عام (١٣٣٠هـ). وقد صدر مؤخراً كتاب بعنوان (علماء الحضارم في جدة) للشيخ علي بن سالم العميري المتوفَّى سنة ١٣٧٣هـ.

وفي القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، مع نجاح النشاط التجاري للحضارم في جنوب شرق آسيا وإفريقيا، قام عدد منهم بإرسال أبنائهم للاستقرار في الحجاز، ليس لأنها أغنى أو أكثر تقدما من أرضهم، لكن بهدف فتح مؤسسات مالية بسيطة تقدم خدمات الصرافة والتحويل والتمويل للمسلمين الذين يأتون من جميع الأقطار الإسلامية إلى الحجاز لأداء مناسك الحج والعمرة. وقد اختار العثمانيون بعضا منهم – مثل باناجة - لإدارة الشؤون المالية لولاية الحجاز. و من بعدهم نهج الأشراف السلوك نفسه؛ ففي عهد الشريف عبد المطلب عُيّن عبد الله بامصفر وزيرا للمالية، وفي عهد الشريف عبد الله بن عون تولى الوزارة عبد الله باناعمة، وفي عهد الملك حسين بن علي عام ١٩١٦م كان رئيس الديوان الهاشمي أحمد السقاف، وعبد الله باشا باناجة وزيرا للمالية.

وفي مطلع القرن العشرين استمرت هجرة الحضارم إلى جزر جنوب شرق آسيا وسواحل شرق إفريقيا. وفضّل جزء منهم السفر إلى أرض الحجاز، لاسيما من أبناء دوعن الذين كانوا يصطحبون

(أو يرسلون) أولادهم الصغار للعمل لدى الأسر الموسرة في مكة والمدينة. ومن اللافت أن نجد بين هؤلاء الدواعنة الذين وصلوا الحجاز صغارا في بداية العشرينات من القرن الماضي (مثل عبد الله بلخير وأحمد بغلف ومحمد بن لادن وسالم بن محفوظ وأحمد وعبد الله أبناء سعيد بقشان) أبرز من نجح في الإسهام في خدمة التنمية في المملكة العربية السعودية وكذلك في خدمة اليمن من المهاجرين الحضارم.

وفي تلك الفترة (مطلع القرن العشرين) كان على المهاجرين الحضارم التكيف مع المعطيات الجديدة التي أفرزتها القواعد الدولية من حدود ونظم سياسية ومواطنة. وقد اختار كثير منهم ومن أولادهم الانصهار التام في المجتمع الحجازي، وتأكيد انتمائهم إلى أرض الحجاز التي احتضنتهم وأصبحوا جزءا من نسيجها الاجتماعي. ويبيّن تقرير نشرته الحكومة البريطانية عام ١٩٣٠ أن عدد الحضارم بالحجاز بلغ خمسة آلاف شخص يعود أصل معظمهم إلى وادي دوعن، وقد اختاروا حمل الجنسية الحجازية. وبعد وصول جيش الملك الموحد عبد العزيز بن عبد

الرحمن آل سعود إلى الحجاز عام ١٩٢٤، وإعلان توحيد الجزء الأكبر من مناطق الجزيرة العربية باسم المملكة العربية السعودية عام ١٩٣٢، كان ذوو الأصول الحضرمية من أوائل أفراد المجتمع الحجازي الذين أعلنوا الولاء والطاعة لمؤسس المملكة. وفي الأيام الأولى من الحكم السعودي كان عدد منهم يدعون إلى مجلس الملك كمستشارين وأعضاء لجان، ومنهم من تقلد مناصب رسمية مهمة، مثل الأديب والإعلامي والسياسي الشيخ عبد الله عمر بلخير الذي يعد أحد الرجال القلائل الذين اعتمدت عليهم إدارة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود الذي كان يصطحبه في رحلاته المختلفة داخل المملكة وخارجها. وبما أن عبد الله بلخير يجيد اللغة الإنجليزية فقد عينه الملك عبد العزيز مترجما رسميا له. وفي أربعينيات القرن الماضي ترأس عبد الله بلخير ديوان الملك سعود بن عبدالعزيز. ولثقة الملك سعود به كلفه بإنشاء المديرية العامة للإذاعة والصحافة والنشر عام ١٣٧٤هـ، وعينه أول وزير للإعلام في المملكة العربية السعودية. وقد استمرت أعداد المهاجرين الحضارم في السعودية في الارتفاع إذ

أنها فاقت عام ١٩٣٦ عشرة آلاف شخص أكثرهم في جدة ومكة المكرمة.

وكما أخلص الاندونيسيون والسنغافوريون ذوو الأصول الحضرمية لجاوة وسنغافورة وساهموا في تنميتها وتطويرها، أخلص الحجازيون ذوو الأصول الحضرمية لأرض الحجاز ثم للمملكة العربية السعودية، وشاركوا في تنميتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية مع سكانها الآخرين وذلك قبل فترة طفرة النفط السعودية بمراحل كثيرة.

ومن أبرز الذين رفدوا الاقتصاد السعودي الشيخ سالم بن احمد بن الشيبة بن محفوظ الذي أسس أول مؤسسة مصرفية في المملكة: البنك الأهلي التجاري. وكذلك المعلم محمد بن لادن الذي أسس شركة بن لادن السعودية، والذي تشرفت بثقة الدولة السعودية التي كلفته بترميم وتوسيع الحرمين الشرفيين (الحرم المكي والحرم النبوي) والمشاعر (عرفة – مزدلفة – منى). والشيخ أحمد سعيد بقشان الذي أسهم في تحديث الحياة الاقتصادية في المملكة،

والشيخ محمد أبوبكر باخشب الذي أسس جامعة الملك عبد العزيز في جدة.

وهناك كثير من السعوديين ذوي الأصول الحضرمية الذي يعملون اليوم في سلك التربية والتعليم وفي القوات المسلحة والحرس الوطني السعودي. ولا شك أن ما قدمه ويقدمه السعوديون من ذوي الأصول الحضرمية في خدمة السعودية يفسر السياسات الاستيعابية المحفزة التي انتهجها النظام السعودي تجاههم والتي ساعدت على تنامي مكانتهم في المملكة، وكذلك ارتباطهم بعلاقات وثيقة مع رموز الأسرة الحاكمة.

إذن، مع تسليمنا بأن هناك عددا كبيرا من السعوديين ذوي الأصول الحضرمية الذين نجحوا في الإسهام في خدمة التنمية في المملكة العربية السعودية وكذلك في خدمة أرض أجدادهم وآبائهم: حضرموت، فقد اخترنا أن نكرس هذه الدراسة لتسليط الضوء على نجاح أسرة بقشان في التوفيق بين خدمة التنمية في السعودية وبين خدمة أرض أجدادهم وآبائهم: اليمن. فاليوم تعد أسرة بقشان من أبرز تلك الأسر التجارية السعودية التي أسهمت ولا تزال

تسهم بشكل فعال في النهوض الاقتصادي للمملكة العربية السعودية وأرض الاجداد. وقد حظي آل بقشان باحترام آل سعود باعتبارهم مساهمين في نهضة المملكة منذ سنوات التأسيس. فالملك عبد العزيز ربطته علاقة متميزة بالشيخين أحمد وعبد الله سعيد بقشان منذ توليه الحكم وائتمنهما على أداء بعض خدماته. ويروي السلطان غالب بن عوض القعيطي آخر سلاطين الدولة القعيطية في حضرموت ما قام به آل بقشان من دور كبير في تعزيز العلاقات بين الوطنين الجارين إبان حكمه وحكم آبائه في حضرموت. ويذكر أن الشيخين عبد الله وأحمد سعيد بقشان كانا يدخلان على السلطان صالح بن غالب القعيطي وجلالة الملك فيصل بن عبد العزيز دون التقيد بالبروتوكولات السلطانية والملكية وذلك بحكم الثقة التي كانا يتمتعان بها لديهما. ومن ناحية أخرى، سنبيّن في هذا البحث كيف تتوزع إسهامات بقشان التنموي على القطاع الاقتصادي والقطاع الاجتماعي الخيري: الاجتماعي والتعليمي في كل من السعودية واليمن، وكيف تمّ توظيف تلك الجهود في سبيل ترسيخ العلاقات المتينة بين أكبر جارين في الجزيرة العربية. في الجزء الأول من الدراسة نقدم تعريفا سريعا

للأسرة وأربعة من أبرز الشخصيات التي أسهموا في تحقيق نجاحاتها. وبما أنه تبيّن لنا في البحث الذي كرسناه للمهاجر اليمني شيخ بن عبد الرحمن الكاف مدى ارتباط نجاح المهاجر اليمني في خدمة وطنه بنجاحه في خدمة أرض المهجر، فقد اخترنا أن نتناول في الجزء الثاني من الدراسة بعض ملامح نشاطات بقشان الاستثمارية والاجتماعية الخيرية في المملكة العربية السعودية قبل أن نستعرض - في الجز الثالث- نشاطات بقشان الاستثمارية والاجتماعية الخيرية في حضرموت واليمن بشكل عام.

أولا: من هم آل بقشان؟

في القرن التاسع عشر كانت أسرة بقشان متواضعة الحال، ولكنها كبيرة المقام وسط فخائذ قبيلة سيبان الأخرى. وكان الشيخ عمر بن محمد بقشان أحد كبار زعماء سيبان وواحد من الذين حققوا لها المجد في نهاية القرن التاسع عشر، وأصبح مقدم الحالكة.

ويُعد الشيخ سعيد سليمان بقشان البانخر الحالكي السيباني (١٢٩٨- ١٣٨٦هـ) من أبرز الذين أسهموا في بداية تعمير "خيلة بقشان" التي تقع في المدخل الجنوبي للفرع الأيسر من وادي دوعن. وقد "عاش حياته كلها في حضرموت، وعمل بالتجارة والزراعة وتربية الأغنام والإبل، وعُرف بصلاحه وبرّه وتقواه وعشقه لفعل الخير، فكبرت مكانته في نفوس الناس، وأعلوا من قدره ومقامه، لا بسبب ماله وتجارته ولكن بسبب حبِّه لإصلاح ذات البين، ونخوته في إغاثة الملهوف وقضاء حاجة المنقطع وإعانة المعسر وإيواء الغريب، فكانت داره في خيلة مفتوحة لكل وافد، لا تردُّ سائلاً ولا يُقفل بابها، مائدته متاحة، ويده مبسوطة، وقلبه يتسع للجميع. وقد خلف الشيخ سعيد سليمان بقشان من بعده أربعة من أفذاذ الرجال، ورثوا عنه علوَّ همته، وشهامته، وكرمه، وحبه للخير، وهم: الشيخ عبد الله سعيد بقشان (١٣١٩- ١٤٠٨هـ)، والشيخ أحمد سعيد بقشان (١٣٢١- ١٣٨٥هـ)، والشيخ سليمان سعيد بقشان (١٣٢٣- ١٤٢٥هـ)، والشيخ هادي سعيد بقشان".(محمد أبوبكر حميد: الطريق إلى خيلة).

ومثل الدواعنة الآخرين أرسل الشيخ سعيد سليمان بقشان ولده الأكبر عبد الله سنة ١٣٣٣هـ للعمل في مكة المكرمة بأرض الحجاز، وفي سنة ١٣٣٥هـ، ألحق به أحمد، ثم سليمان في سنة ١٣٣٣هـ. وقد اشتغل الأخوة الثلاثة الذين حملوا الجنسية الحجازية في تجارة القماش، وبارك الله في تجارتهم التي سرعان ما اتسعت. ولما دخل الملك عبد العزيز الحجاز كانوا في مقدِّمة مَن بايعه، ففرح والدهم بذلك وأرسل إليهم من دوعن رسالة يقول فيها إن "عبد العزيز بن سعود هو حاضر الجزيرة الواعد، وموحِّدها الصادق، ومستقبلها المشرق، ناصر دين الله، وحامي حمى الحرمين".

ثانيا: ملامح من نشاطات بقشان الاستثمارية والاجتماعية الخيرية في السعودية:

أ-النشاط الاستثماري:

سبق إن ذكرنا أن الأخوان بقشان عندما وصلوا إلى الحجاز اشتغلوا في تجارة القماش، وأصبحوا من أشهر تجار الأقمشة في الحجاز إلى درجة أن الملك عبد العزيز كلّفهم بتوفير كل متطلبات

الأسرة والديوان الملكي من الأقمشة. لكن أسرة بقشان التي توسعت وزاد عدد أفرادها سرعان ما شرعت في تنويع مجالات استثماراتها. فبالإضافة إلى التجارة، اقتحم آل بقشان مجالات كثيرة منها: العقارات والصناعة والصحة والتعليم والفندقة والاتصالات والمطابع والمقاولات. وبما أنه من الصعب جدا رصد مختلف أنشطة آل بقشان في السعودية فسنكتفي هنا بذكر بعضها.

في نهاية الخمسينات من القرن الماضي أنشأ المرحوم أحمد سعيد بقشان في السعودية واحدا من أقدم مصانع المشروبات الغازية في الشرق الأوسط. وقد احتفلت (شركة المشروعات الصناعية السعودية)، التي تعد الشركة الأولى لإنتاج البيبسي كولا في الوطن العربي بمرور ٥٠ عاماً على تأسيسها.

وقبل ذلك أنشاء المرحوم عبد الله سعيد بقشان أكبر مؤسسة لتوزيع الإطارات في السعودية وتحمل اليوم اسم (مؤسسة الطلائع للإطارات). وفي عام ١٩٧٧ أسس ابنه الشيخ سالم عبد الله بقشان (شركة الإنجازات للتجارة) وهي جزء من مجموعة بقشان

التجارية التي يشرف على تسييرها فريق من المهنيين الأكفاء المتميزين، ويرأس مجلس إدارتها حاليا الشيخ محمد سالم عبد الله سعيد بقشان.

واليوم يحظى مستشفى بقشان العام في جدة، الذي بدأ في استقبال المرضى بعيادات خاصة بالنساء والولادة وعيادات للأطفال منذ عام ١٩٨٠ بسمعة طيبة، وبدعم وتشجيع من حكومة خادم الحرمين الشريفين لما يحتويه من خبرات بشرية وأجهزة طبية حديثة. ومن المعلوم أن هذا المستشفى يقدم اليوم، إضافة نشاطه الخيري المتمثل في تقديم المنح العلاجية المجانية للمرضى المحليين والعرب، خدمات طبية وعلاجية راقية تنافس أرقى المستشفيات العالمية.

وفي عام ٢٠٠٨ أسست مجموعة بقشان السعودية (مدارس الأجيال المتطورة). وهي أول مدرسة أهلية في مدينة جدة بالمملكة العربية السعودية تقدم منهجا دراسيا عالميا في بيئة إسلامية. وقد عينت الدكتور الشهير طارق السويدان للإشراف عليها.

ب- الأعمال الخيرية لبقشان في المملكة العربية السعودية

إدراكا منها لأهمية المسؤولية الاجتماعية تقدم مجموعات بقشان السعودية العديد من البرامج الاجتماعية والخيرية وتتبنى الدعم المؤسسي في مختلف المجالات الخدماتية الصحية والتعليمية والثقافية والرياضية في المملكة العربية السعودية.

ففي مجال التعليم العالي يعد الشيخ المهندس عبد الله أحمد بقشان أول رجل أعمال سعودي يقوم بدعم الكراسي العلمية. فهو قام بتمويل أول كرسي علمي أسس سنة ١٩٩٩ في جامعة سعودية؛ وهو (كرسي بقشان لأبحاث الاتصالات اللاسلكية) بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن. وفي الجامعة نفسها يشارك الشيخ المهندس عبد الله أحمد بقشان في تمويل أبحاث تخفيف نسبة الملوحة في التربة بما يتناسب مع خدمة الإنسان والزراعة في المملكة. ولأوقاف هذه الجامعة أيضا تبرع رجل الأعمال محمد بن عبد الله بقشان ببرج يتكون من عشرة طوابق في شهر مارس ٢٠١٠.

وفي منتصف عام ٢٠٠٧ وقعت جامعة الملك سعود مع الشيخ المهندس عبد الله بقشان اتفاقية تمويل كرسي بحث متخصص في أبحاث التربية. وفي الثلاثين من مايو ٢٠٠٩ أعلنت الجامعة نفسها افتتاح كرسي بحث في مجال طب الأسنان، يحمل اسم «العوامل المحفزة لبناء العظام»، وذلك بتمويل من الشيخ المهندس عبد الله بقشان الذي أشار في حفل تأسيس الكرسي إلى "أن طب الأسنان يعالج مشكلة يواجهها كثير من الأبناء في كافة مناطق المملكة، والكراسي البحثية ينبغي أن تعالج المشكلات التي يواجهها المجتمع".

كما أنشأ الشيخ المهندس عبد الله أحمد بقشان في جامعة الملك سعود (كرسي بقشان لأبحاث النحل) وذلك للنهوض بصناعة النحل في المملكة العربية السعودية، و(كرسي عبد الله بقشان لأبحاث التربة الانتفاخية). وفي عام ٢٠٠٨ تبرع لكلية الهندسة بهذه الجامعة بخمسة ملايين ريال سعودي. ويجسد (كرسي عبد الله بقشان لأبحاث العنف الأسري) الذي أنشئ بجامعة الملك عبد العزيز بجدة في العام نفسه إدراك رموز الاقتصاد السعودي

لأهمية الاستقرار الاجتماعي والأسري في تربية الأجيال القادمة. وفي هذه الجامعة أنشأ الشيخ وليد سالم بقشان (كرسي الشيخ سالم بقشان لأمراض الخرف: الزهايمر) وذلك في منتصف سنة ٢٠٠٨.

وبالإضافة إلى تمويل الكراسي العلمية بادر الشيخ المهندس عبد الله بقشان إلى الاهتمام بالوقف الجامعي في المملكة العربية السعودية؛ ففي ١٩ يناير ٢٠٠٩ وقعت جامعة الملك فهد للبترول والمعادن معه اتفاقية "وقف بقشان الخيري للاتصالات اللاسلكية" الذي يأتي امتداداً لكرسي بقشان في الاتصالات اللاسلكية. وقبل ذلك (في عام سنة ٢٠٠٨) اشترك الشيخ عبد الله بقشان مع صديقه رجل الأعمال المعروف الشيخ محمد حسين العمودي وقدما معا ٥٠ مليون ريال سعودي وقفا لخدمة التطور العلمي في المملكة العربية السعودية. وفي مجال الصحة يبرز أسمي الشيخين سالم ومرعي بقشان في القائمة الذهبية لداعمي المركز السعودي لزراعة الأعضاء ومركز الأمير سلمان الخيري لأمراض الكلي بالرياض. وكما ذكرنا يقدم مستشفى بقشان بجدة تسهيلات

للمرضى المحتاجين القادمين من جدة ومختلف المدن العربية الأخرى. ويقوم الشيخ المهندس عبد الله سعيد بقشان بتقديم دعم سخي لمستشفى الملك فهد مستشفى جدة.

وفي مطلع عام ٢٠١٠ تم في (جمعية الأيادي الحرفية الخيرية) بجدة افتتاح أول مركز حرفي غير ربحي في السعودية بدعم من الشيخ المهندس عبد الله بقشان، ورعاية وزير الشؤون الاجتماعية بالمملكة العربية السعودية. أما شركة (الطلائع بريجستون) التي أسس نواتها الشيخ عبد الله سعيد بقشان فتقوم بدعم الأنشطة الشبابية ورعاية أصحاب المواهب والأفكار الجديدة في مجال السيارات.

من خلال استعراضنا السابق يمكننا أن نلمس جميع أحفاد سعيد بقشان في المملكة العربية السعودية يبذلون جهودا كبيرة في المجال الاستثماري والمجال الاجتماعي الخيري. ولا شك أن دور الشيخ المهندس عبد الله أحمد سعيد بقشان رئيس مجلس إدارة الهيئة السعودية للمهندسين بات متميزا. وتقديرا لدوره المتميّز ذلك كرمه الأمير محمد بن فهد أمير المنطقة الشرقية وذلك ضمن

فعاليات المنتدى الهندسي السعودي الثاني الذي نظمته جامعة الملك فهد للبترول والمعادن بالتعاون مع الهيئة السعودية للمهندسين الذي نظم خلال الفترة من ١ إلى ٣ ربيع الآخر ١٤٣٠ هـ، تحت رعاية الأمير سلطان بن عبد العزيز ولي العهد نائب رئيس مجلس الوزراء وزير الدفاع والطيران والمفتش العام. وقد سلّم الأمير محمد بن فهد المهندس بقشان درعا تذكارية نظير الإسهامات الفاعلة للهيئة السعودية للمهندسين في المشاركة بتنظيم المنتدى الهندسي السعودي الثاني الذي جاء تحت شعار "المهن الهندسية ودورها في التنمية المستدامة في المملكة".

كما قام صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز ولي العهد السعودي، نائب رئيس مجلس الوزراء، ورئيس الحرس الوطني بالمملكة في ٢٧ - ١٢ - ٢٠٠٤ بتكريم الشيخ المهندس عبد الله أحمد بقشان تقديرا للجهود التي يُقدِّمها داخل وطنه السعودية، وفي وطن آبائه وأجداده اليمن، ولدوره الفاعل في تنشيط حركة الرأسمال الوطني السعودي في العالمين العربي والإسلامي خيرياً واستثمارياً. وفي تلك المناسبة قلده درعا تذكاريا

لقيامه بتأسيس أول كرسي علمي في المملكة السعودية سنة ١٩٩٩.

ثانيا: ملامح من نشاطات بقشان الاستثمارية والاجتماعية الخيرية في أرض الأجداد:

أ- النشاط الاستثماري:

من المعلوم أن البيئة الاستثمارية في جنوب اليمن بشكل عام ظلت معدومة أو سلبية لفترة طويلة. لهذا السبب فشلت المحاولات المبكرة التي قام بها أحمد وعبد الله سعيد بقشان وغيرهم من المستثمرين السعوديين من ذوي الأصول الحضرمية للاستثمار في اليمن في خمسينات القرن الماضي واكتفوا بضخ الأموال بغرض التعمير وتشييد الطرق والمدارس لاسيما في مدن وقرى وادي دوعن. ومنذ تسعينيات القرن الماضي بادر الشيخ المهندس عبد الله أحمد بقشان - قائد الاستثمارات الخليجية في الجمهورية اليمنية - إلى تفعيل الاستثمارات السعودية في حضرموت، ونجح في إقناع عدد من كبار المستثمرين ورجال الأعمال والمال السعوديين للاستثمار فيها. وبالرغم من صعوبة المناخات

الاستثمارية الجديدة فقد شرع في تنفيذ مشاريع استثمارية عملاقة، كان لها صدى حقيقي وفعَّال إذ أنها أعطت دفعة قوية للرأسمال السعودي والخليجي للمشاركة في مجال الاستثمار في اليمن، وفق اتفاقات التبادل التجاري والتعاون الاستثماري الموقَّعة بين أرض أجداده والسعودية في مختلف المستويات الاقتصادية. وقد كان لهذه الدفعة دورها الكبير في ظهور الأثر السريع للاستثمار السعودي في الجمهورية اليمنية. فاليوم تبلغ نسبة الاستثمارات السعودية ٨٠% من جملة الاستثمارات الخليجية في الجمهورية اليمنية.

ولا شك أن هذه الاستثمارات السعودية تدخل ضمن استراتيجية عامة للشراكة بين البلدين الجارين. لكنها بالإضافة إلى ذلك تعد بالنسبة للمستثمرين السعوديين من ذوي الأصول الحضرمية مسألة وفاء للوطن الذي أنجبهم. ففي مطلع الألفية الثالثة تقدم الشيخ المهندس عبد الله احمد بقشان بمقترح للحكومة في الجمهورية اليمنية خلال زيارة له إلى جدة بالمملكة العربية السعودية إنشاء مصنع للإسمنت في حضرموت برأسمال سعودي.

وبعد نحو أربع سنوات من المتابعات تمكن من تأسيس (الشركة العربية اليمنية للأسمنت المحدودة) التي تهدف إلى إنتاج الكلنكر لتصنيع الأسمنت العادي والأسمنت المقاوم للأملاح للبناء في المناطق الساحلية، وذلك بمساهمة الشيخ عبد الله سالم باحمدان وعدد آخر من رجال الأعمال السعوديين وشركة أسمنت المنطقة الشرقية بالسعودية. وقد تمّ افتتاح المصنع يوم الأربعاء ٧ ابريل ٢٠١٠. وفي حفل الافتتاح ذكر المهندس محمد عثمان العمودي، المدير العام للشركة أن تكلفة المصنع بلغت ٢٦٠ مليون دولار. وتبلغ طاقته الإنتاجية اليومية ٤ طن كلينكر يوميا و٤٢٠٠ طن أسمنت يوميا، أي ما يعادل ١,٥ مليون طن سنويا من الأسمنت العادي والمقاوم للأملاح. كما شمل المشروع إنشاء محطة كهربائية بقدرة ٤٥ ميجاوات لإمداد المصنع والبني التحتية - مثل محطة معالجة مياه الشرب ومحطة معالجة مياه الصرف الصحي - بالطاقة اللازمة.

وبعد القيام بدراسات جدوى عالمية أثبتت إمكانية توظيف شواطئ حضرموت الواقعة على المحيط الهندي والغنية بأجود أنواع

الأسماك في سبيل رفد الاقتصاد اليمني بالعملة الصعبة، وبناءً على توفر العمالة اللازمة والماهرة في مدن السواحل اليمنية، بادر الشيخ المهندس عبد الله أحمد بقشان إلى تأسيس (شركة أسماك اليمن المحدودة) وبرأسمال سعودي أيضا.

وبمشاركة مع الحكومة اليمنية ممثلة بـ(مؤسسة موانئ خليج عدن لتشغيل وتطوير ميناء حاويات عدن) و(شراكة موانئ دبي) تساهم (مجموعة بقشان للاستثمار) في رأسمال (شركة دبي وعدن لتطوير الموانئ) الذي يقدّر بـ ٢٠٠ مليون دولار.

وفي محافظة لحج اليمنية شرعت (مجموعة بقشان) بالتعاون مع مستثمرين سعوديين آخرين في تنفيذ مصنع لإنتاج وتعبئة المشروبات الغازية والمياه المعدنية، وذلك بتكلفة أولية تقدر بـ ٦٠ مليون دولار. وأوضح الشيخ المهندس عبد الله أحمد بقشان أن المصنع الذي سيشغل عمالة تزيد على ١٠٠ عاملا، سيلبي احتياجات المحافظة والمحافظات الأخرى من المشروبات الغازية في المرحلة الأولى، والمياه المعدنية في المرحلة الثانية.

وبالإضافة إلى ذلك تقوم مجموعة بقشان السعودية للاستثمار- بشراكة مع مجموعة بن لادن والشيخ عبد الله باحمدان - بتنفيذ مشروع (منتجعات إب السياحية) في مدينة أب وسط اليمن، ومشروع (مرتفعات المكلا السياحية)، و(فندق الأوراق الذهبية) في منطقة عصر في العاصمة اليمنية صنعاء، وفندق سياحي آخر في مدينة الحديدة.

ب- الأعمال الاجتماعية والخيرية لبقشان في أرض الأجداد

من المؤكد أن أعمال آل بقشان الاجتماعية والخيرية في أرض أجداده قد بدأت قبل أن يتمكنوا في الاستثمار التجاري. فمن خلال قراءتنا لتراجم الوالد الشيخ سعيد بقشان وأولاده عبد الله وأحمد وسليمان (انظر الملحق ١) يبرز لنا الدور الكبير الذي قام به آل بقشان في ترسيخ السلم الاجتماعي في وادي دوعن وكثير من مدن وقرى حضرموت. كما قام آل بقشان بتنفيذ عدد من المشاريع التعليمية والخدمية الخيرية في الجمهورية اليمنية قبل عام ١٩٩٠. وبسبب السياسات التي اتبعتها الأنظمة السابقة تعثرت بعض تلك

المشاريع الخيرية مثل مشروع طريق خيلة الذي لم يسمح لهم بتنفيذه إلا بعد قيام الوحدة.

واليوم، إيمانا منها بأهمية الدور الاجتماعي الخيري الذي ينبغي عليها الاضطلاع به في حضرموت التي تحتضن مشاريعها الاستثمارية، تخصص (مجموعة بقشان) ميزانية سنوية ضخمة للعمل الاجتماعي والخير الذي يتجسد في دعم قطاعات التعليم العام والتعليم العالي والصحة والطرق في عدد من المحافظات اليمنية.

ففي مجال التعليم العالي تبرع الشيخ المهندس عبد الله أحمد بقشان بمعدات حديثة لمطابع جامعة عدن بقيمة ٤٢١ ألف يورو (أي ما يعادل ٥٤٨ ألف دولار). وتبرع (هو والشيخ محمد حسين العمودي) بمبلغ ١,٥ مليون دولار لبناء كلية التمريض في جامعة حضرموت للعلوم التكنولوجيا، وأكدا استعدادهما لتوفير مائة ألف دولار للطاقم الفني في وحدة القسطرة التابعة للجامعة.

كما قام المرحوم الشيخ أحمد سليمان بقشان بدعم جامعة حضرموت للعلوم التكنولوجيا في تأسيس كلية الطب، وقدم لها

أيضا دعما ماديا سخيا لإنشاء المستشفى الجامعي، وكلية العلوم التقنية، ومختبرات كلية العلوم البيئية والأحياء البحرية، وسكن الطالبات التابع للجامعة.

وفي ١٠ فبراير من عام ٢٠١٠ أعلن الشيخ المهندس عبد الله أحمد بقشان عن دعمه كلية الطب في جامعة عدن بأجهزة العلاج بالمناظير والمسالك البولية بكلفة تزيد عن مليون وثلاثمائة ألف ريال سعودي، وتمويل حفر بئرين مياه وتركيب مضخات لهما للاستفادة منهما في الدراسات التطبيقية في كلية ناصر للعلوم الزراعية التابعة لجامعة عدن.

وبالإضافة إلى الدعم المادي الذي يوفره المهندس عبد الله أحمد بقشان لكل من جامعة عدن وجامعة حضرموت، لم يتردد في رفدهما بالمشورة والدعم الفني والمقترحات التي ساعدتهما على توثيق علاقاتهما الأكاديمية والعلمية بعدد من الجامعات العربية والأجنبية وفي مقدمتها جامعة الملك سعود وجامعة الملك عبد العزيز بالمملكة العربية السعودية. كما التزم بتدريب طلاب الكليات الطبية بالجامعتين في مستشفى بقشان بجدة، التي - من

ناحية أخرى- ستمكن أساتذة هذه الكليات من الاستفادة من الخبرات العملية والتقنيات الحديثة المتوفرة لديها.

ويساهم الشيخ المهندس عبد الله أحمد بقشان كذلك في تقديم منح لمجاميع من الطلبة اليمنيين المتفوقين، وذلك لتمكينهم من إعداد الدراسات الجامعية أو العليا في الداخل والخارج، وتوفير السكن الخيري لهم.

وفي إطار التعليم العام، تقدم مجموعة بقشان دعمها المادي والمعنوي، أما مباشرة أو من خلال بعض الهيئات والمنظمات غير الحكومية، مثل هيئة تطوير خيلة ومؤسسة حضرموت للتنمية البشرية ومؤسسة العون ومؤسسة ابن خلدون والصندوق الخيري لدعم الطلبة المتفوقين. مثلا؛ قام الشيخ عبد الله بقشان ببناء مدرستين ثانويتين للطلاب المتفوقين من البنين: الأولى في المكلا والثانية في سيئون. ويدعم الثانويتين النموذجيتين في محافظة عدن بمبلغ مئتي ألف ريال سنويا.

أما الشيخ المرحوم أحمد سليمان بقشان فقد أسس جائزة سنوية للطلبة المتميزين تحمل اسم والده سليمان سعيد بقشان، وذلك بهدف تحفيز طلبة التعليم العام على العطاء والتفوق العلمي.

وفي مجال الصحة، قامت مجموعة بقشان بقيادة الشيخ المهندس عبد الله أحمد بقشان بتشييد وتجهيز مستشفى دوعن الذي تم افتتاح المرحلة الأولى منه في إبريل ٢٠٠٩. ويضم هذا المستشفى أقساما للجراحة والأطفال الخدج والأشعة والعناية بالأم الحامل والطفل بعد الولادة. ولضمان إجراء العمليات الطبية المعقدة في المستشفى تقوم المجموعة باستقدام القوافل الطبية المتخصصة إلى المستشفى كل بضعة أشهر.

كما قام الشيخ المهندس عبد الله أحمد بقشان بتنظيم قوافل طبية من مستشفى بقشان بجدة إلى مستشفى الثورة في صنعاء لإجراء ١٤ عملية قسطرة وثلاث عمليات قلب مفتوح. وفي عام ٢٠٠٩ نظم وصول قافلة طبية عالمية إلى محافظة عدن. وقد حققت تلك القافلة نجاحا باهرا إذ استفاد من خدماتها كثير من المواطنين اليمنيين

الذين خضعوا -مجاناً -لعمليات جراحية كبرى تجرى لأول مرة في اليمن.

وتبرع الشيخ عبد الله أحمد بقشان بمبلغ ستين مليون ريال يمني لإنشاء مركز لأمراض الكلى والغسيل الكلوي في مستشفى عزان بمحافظة شبوة. وقدم دعما ماديا وأجهزة الرعاية المتكاملة للأطفال حديثي الولادة لمستشفى ابن سينا بالمكلا.

وتقديرا للأعمال الخيرية التي يقدمها الشيخ المهندس عبد الله أحمد سعيد بقشان في المجالات الأكاديمية والتعليمية والثقافية في الجمهورية اليمنية، ولدعمه المباشر للجامعات اليمنية في إقامة البنية التحتية ولاعتباره أحد أبرز رجال المال والأعمال العرب، منحته جامعة عدن الدكتوراه الفخرية في العلوم الاقتصادية والاجتماعية، واختارته رئيسا لمجلس أمنائها.

وقامت جامعة حضرموت للعلوم والتكنولوجيا بانتخابه في مجلس الأمناء وذلك تقديراً لدوره البارز ومساهمته في النهوض بالجامعة وإنشاء كلياتها المختلفة. وتقديراً للدور الكبير الذي بذله الشيخ المرحوم احمد سليمان بقشان في دعم هذه الجامعة ماديا ومعنوياً،

وتخليداً لذكراه، أطلقت الجامعة أسمه على القاعة الكبرى بكلية الطب في منطقة فلك ومنحته شهادة تقديريه.

ومن جانبه أكد الأستاذ طاهر حزام رئيس اللجنة الإعلامية لـ(مؤتمر مواطنة الشركات والمؤسسات والمسؤولية الاجتماعية) الذي عقد في صنعاء نهاية يونيو ٢٠٠٩ أن معظم الشركات اليمنية، تجهل أو تتجاهل المسؤولية الاجتماعية تجاه المجتمع الذي يستهلك منتاجتها أو يحتضن استثماراتها. وأوضح أن الاستطلاع الذي نفذه مركز دراسات وبحوث المستهلك المنظمة للمؤتمر الأول والثاني للمسؤولية الاجتماعية، كشف عن أن ٩٥ في المائة من الشركات العاملة في السوق اليمنية تجهل هذه المسؤولية الاجتماعية. وذكر أن مجموعة بقشان للاستثمار، التي تخصص ميزانية سنوية وبشكل مؤسساتي للأعمال الاجتماعية والخيرية، تعد وفقا للاستطلاع من الشركات التي تقوم بدورها الاجتماعي بشكل منتظم، وذلك كواجب أخلاقي وديني تجاه المجتمع الذي تستثمر في أراضيه.

المهاجر الحضرمي في شرق إفريقيا:

الشيخ سالم عبيد باحبيشي أنموذجا

منذ أقدم العصور ظل الإنسان الحضرمي يعشق السفر والترحال. وأينما اتجه أخذ معه قيمه وعاداته الثقافية والإنسانية العريقة التي مكنته من النجاح في التعامل مع الآخرين وكسب ثقتهم واحترامهم، وهذا ما مكنه من الإسهام في نشر الإسلام في بقاع كثيرة من العالم، ومن تكوين ثروات ضخمة استطاع بواسطتها المشاركة في تنمية وطنه والبلاد التي هاجر إليها. وهناك كثير من الأسماء التي نجدها لمغتربين يمنيين استطاعوا بفضل نجاحهم الباهر أن يتركوا بصماتهم في كل أرض نزلوا بها، وأصبحوا رموزاً هناك وفي وطنهم. فمن منا لم يسمع عن ابن محفوظ أو بقشان أو العمودي أو الكاف؟ وإيمانا منا بضرورة الانتقال من الحديث العام عن تاريخ الهجرة الحضرمية ودور المغتربين في التنمية إلى تسليط الضوء على بعض النماذج البارزة من

المهاجرين اليمنيين الذين جسدوا نجاح المغترب اليمني في خدمة بلاد المهجر ووطنه اخترنا في هذه الدراسة التركيز على دور الحاج سالم عبيد باحبيشي في الإسهام في التنمية الاستثمارية والخيرية في كل من أثيوبيا (وتحديدا أسمرة التي أصبحت عاصمة لدولة ارتريا) ومصر، وحضرموت.

في كتابه (المستوطنات العربية في الأرخبيل الهندي) يذكر فان دن بيرخ "أن غالبية المهاجرين في جميع المستعمرات العربية يأتون من منطقة واحدة في وادي حضرموت تمتد من شبام غربا إلى تريم شرقا. بينما يحبذ سكان وادي دوعن الذهاب إلى مستعمرات عدن وجيبوتي وسواكن والقرن الإفريقي أو القاهرة".

فمنذ منتصف القرن التاسع عشر شهدت مناطق القرن الإفريقي هجرات يمنية واسعة، لاسيما من حضرموت وعدن وتعز وزبيد. وقد "كوّن بعض المهاجرين الجدد نفوذاً تجارياً لهم في بعض مدن وموانئ ارتيريا وجيبوتي والصومال وخاصة في زيلع وبربرا وأسمره وكسمايو ومصوع، واشتغل

البعض الآخر بأعمال عضلية في تلك الموانئ أو على ظهر السفن التجارية بين الساحل الآسيوي والساحل الأفريقي للبحر الأحمر. وظل الكثير من المهاجرين الجدد على صلة بوطنهم الأم، عكس الذين سبقوهم في الهجرة في القرون الثلاثة السابقة لبداية القرن العشرين، فقد اندمج السابقون في مجتمعهم الأفريقي وذابوا فيه كما هو حال الذين هاجروا إلى بلاد الحبشة في التاريخ القديم".(أ.د. صالح علي باصرة: الهجرة اليمنية إلى شرق أفريقيا حتى منتصف القرن العشرين).

ومن أبرز الحضارم الذين سافروا في مطلع القرن العشرين من منطقة حوفة في دوعن واستقروا في أسمرة: الشيخ عبيد باحبيشي، الذي أصبح هو والشيخ محمد باخشب والشيخ سعيد عبد الله العمودي والشيخ حسن بامشموس من أكبر التجار في الحبشة. وحينما توفي عام ١٩٣٠ خلفه في إدارة أعماله التجارية والخيرية أبناؤه (الأربعة) محمد واحمد وسالم و.... وجميعهم من مواليد أسمرة.

في عام ١٩٤٣ قام سالم عبيد باحبيشي وإخوانه ببناء وتوسيع جامع أسمرة وجناحيه، ودار الكتب العلمية ومسكن الطلاب الملحقين به، وكذلك المعهد الديني الإسلامي الذي أفتتح رسميا في عام ١٩٤٤. كما أوقفوا أرضا للمقبرة الإسلامية هناك وأسسوا مدرسة بالقرب منها.

وقد انتخب الأخ الأكبر احمد عبيد باحبيشي عام ١٩٥١ رئيسا للجالية العربية في أرتيريا كلها. وبعد وفاته -في اكتوبر ١٩٥٩-أشرف الحاج سالم على أعمال (مجموعة سالم عبيد باحبيشي وشركاؤه) التجارية والخيرية. وقد قامت المجموعة مع أنجال سعيد عبدالله العمودي بترميم جامع الخلفاء في أسمراء في عام ١٩٦٧.

ومن المعلوم أن الارتيريين من ذوي الأصول الحضرمية قد ساهموا - مثل غيرهم من العرب والمسلمين في الصومال واثيوبيا - في حركة التحرر الوطني المحلية في البلدين ضد الاستعمار الايطالي والفرنسي والانجليزي، قبيل وبعد الحرب العالمية الثانية. و"لكن الجزاء لم يكن من نوع العمل، بل كان مغايراً لمعنى الوفاء، وخاصة في زمن الحرب، وبعد ظهور

الدول الوطنية في بلدان القرن الأفريقي. فقد واجه العرب عامة والمسلمون خاصة، بعض الاضطهاد من قبل السكان المحليين بمن فيهم المسلمون، وشمل هذا الاضطهاد في بعض المناطق منع الهجرة وإيقاف التحويلات النقدية وتقليص فرص العمل أمام المهاجرين. واندمج البعض في مجتمعاتهم الجديدة وغادر البعض الآخر بلد الاغتراب وعادوا إلى وطنهم الأصلي اليمن. وقد زادت الهجرات اليمنية المعاكسة في عهد النظام الاشتراكي لزياد برى في الصومال والعهد الماركسي لحكم منجستو هيلا ماريام في اثيوبيا. وعانى المهاجرون الجنوبيون الأمرين بسبب جحيم الاشتراكية في وطنهم الأصلي وجحيم الاشتراكية في بلدان اغترابهم. ومع هذا عاد بعضهم إلى وطنهم الأصلي حفاظاً على كرامتهم ولحماية أعراضهم، ونقل ما خف وزنه وغلا ثمنه من مدخرات العمر. وجاءت الحرب الصومالية الأخيرة واضطراب الأوضاع في اثيوبيا بسبب حرب الاستقلال الارتيري لتلقي بظلالها الكئيبة على المهاجرين القدامى والجدد، بل أن بعض المهاجرين ممن لم يعد يجيد اللغة

العربية أو يتذكر أصله سعى إلى مغادرة جحيم الحرب بالذهاب إلى اليمن. وفي اليمن سعى بعض هؤلاء إلى البحث عن أصولهم القديمة".أ.د. صالح باصرة (الهجرة اليمنية إلى شرق أفريقيا حتى منتصف القرن العشرين).

وقد كان للحاج سالم عبيد باحبيشي مشاركات فاعلة في نضال أبناء الجالية العربية في اثيوبيا لنيل حقوقها. لاسيما تلك التي حدثت إثر إحراق طائرة الخطوط الأثيوبية في مطار مدينة فرانكفورت بألمانيا بعد إنزال جميع من كان فيها من الركاب وذلك في يوم الثلاثاء ١١ مارس ١٩٦٩. وقد نسبت الإذاعات العالمية حينها، ومنها صوت أمريكا، الحادثة إلى جبهة التحرير الإرتيرية، ونقلت على لسان الجبهة التهديد بالاستمرار في حرق أي طائرة أثيوبية يجدونها في مطارات العالم إلى أن تتحرر أرتيريا بالكامل من الحكم الأثيوبي.

وقد نسبت الصحافة الأثيوبية الحادثة إلى الحكومة السورية، وظلت تكرر هذا الاتهام وتنشر الدعايات المضادة لسوريا وجبهة التحرير الإريترية، رغم نفي الحكومة السورية أي

علاقة لها بهذه الحادثة. وقد استغللت اثيوبيا هذه الحادثة فاستمرت في شن حملة دعائية ضخمة عبر وسائل إعلامها ضد سوريا، و ضد العرب الارتيريين "الخارجين على القانون"، والعرب عموما مدة أسبوعين من الزمن، ثم قامت اثيوبيا بتدبير مظاهرة جمعت لها الأفواج من كافة المديريات الثمانية في ارتريا في ٢٢ من مارس ١٩٦٩ في مدينة أسمرة. للمطالبة بالانتقام من سوريا وطرد الارتيريين من ذوي الاصول العربية من أثيوبيا،

وفي صباح الجمعة ٢٧ من مارس ١٩٦٩ قام أبناء الجالية العربية من كافة المديريات الإرترية بمظاهرة في شوارع أسمرة، اتجهت إلى دار الحاكم العام حيث ألقى هناك الشيخ سالم عبيد باحبيشي كلمة باللغة العربية ترجمها إلى الأمهرية مدير مديرية "أكلى غوزاي" الأستاذ على حيقوا، ونشرت الصحافة أخبار هذه المظاهرة وكلمة الشيخ سالم "مع زيادات لم يقلها" هو، ثم أرسل أبناء الجالية العربية تلغرافات إلى عدة جهات منها: سكرتير الجامعة العربية بالقاهرة، سكرتير

مؤتمر العالم الإسلامي بجدة، ملك المملكة العربية السعودية بالرياض، رئيس الجمهورية العربية اليمنية بصنعاء، ورئيس جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية بعدن. وقد نشرت جريدة (الوحدة) الحكومية نص التلغراف كاملا، وفيها استنكار للاعتداء السوري، وطلب من هذه الجهات المذكورة بمنع سوريا من ممارسة عدوانها ضد أثيوبيا باسم العرب والإسلام. ونتيجة لهذه الحملة المسعورة فقد سادت في البلاد أجواء معادية وخطيرة للجالية العربية، ولذلك أصدرت الجامعة العربية بيانا تحذر فيه أثيوبيا بأنه إذا حصل أي ضرر تجاه العرب في أثيوبيا فإنها لن تقف مكتوفة اليدين وسترد بالمثل. وقد اضطرت الحكومة الأثيوبية عبر وزير استعلاماتها إلى التأكيد بأن العرب في أثيوبيا لن يصابوا بأي ضرر. وكانت الجالية العربية - تحسبا لما قد يحدث - قد جهزت حوالي ٣٠٠ شخص من أفرادها الفقراء لإعادتهم إلى أرض الأجداد، وجمعت التبرعات لذلك الغرض، وقدمت أسماء هؤلاء الأشخاص إلى إدارة الجوازات الأثيوبية بأسمرة للسماح لهم بمغادرة أرتيريا، ولكن هذه الإدارة رفضت منحهم

تأشيرات السفر خوفا مما قد يترتب على ذلك من ردود الفعل في الخارج ولاسيما في العالم العربي. ورغم مزاعم وزير الاستعلامات الأثيوبي تلك، فإن الدولة ظلت تضايق الجالية العربية وتبتزها بشتى الوسائل الممكنة.

ولما شعر الشيخ سالم عبيد باحبيشي بتغير الأحوال السياسية في اثيوبيا نقل جزءا من ثروته الى مصر واشترى فيلا في أحد أحياء القاهرة واستقر بها.وأسس بها أعمالا تجارية وعقارية. وعندما استولت الحكومة الشيوعية في الحبشة على أموال آل باحبيشي هناك مثل جميع المهاجرين الحضارم هناك، احتضنهم الشيخ سالم وساعدهم على الاستقرار عنده وفي بعض دول الخليج. كما واصل القيام بالأعمال الخيرية. حيث أنشأ عددا من مراكز العلاج الخيري في مصر والسودان وعدد من الدول الإفريقية. وحضرموت. واشترى أرضا بالقاهرة وجعلها مقبرة لليمنيين يوافيهم الأجل هناك. وقد دفن رحمه الله في هذه المقبرة.

أعمال الشيخ سالم عبيد باحبيشي في حضرموت

منذ مطلع الخمسينات بدأ الشيخ سالم عبيد باحبيشي في التردد على سيؤن وتزوج في حي القرن، وشيد له فيه بيتا جميلا (وفي الستينات شيد بيتا آخر وقد أممت تلك البيوت في عام ١٩٦٨). وأنشأ فيها أول محطة كهرباء بوادي حضرموت. وقد أحضر لها معدات حديثة وعالية الجودة واستقدم عدد من المهندسين الإيطاليين لتركيبها. وقرر صرف جميع الايرادات للكهرباء في الصدقة وأعمال الخير ولم يقبض فلسا واحدا الى جيبه الخاص.

وفي دوعن قام الشيخ سالم عبيد باحبيشي بتمويل مشروع نقل الماء من أعالي الجبال الى مسقط رأس والده (حوفة)، التي كان أهلها يمضون ساعات طويلة من أجل إحضار قربة واحده من الماء. وفي الجحي أسس مستشفى كبيرة تأخر افتتاحه بسبب بعض الاشكالات.

أما في مجال التعليم فقد أسهم الشيخ سالم عبيد باحبيشي في تشييد مدرسة القرن الأهلية. وأسس على نفقته الخاصة أول مدرسة بنات بسيئون. ومن الأخبار السارة التي أرسلها الصحفي علي الصبان من سيؤن إلى صحيفة (فتاة الجزيرة) في عام ١٩٦٦ خبر عن تبرع المحسن الشيخ سالم عبيد باحبيشي بمبلغ ٤٠ ألف شلن لإعادة تعمير مسجد طه بسيؤن. كما قام باحبيشي بتمويل التعمير الأخير (بالحجر والأسمنت) لجامع تريم في حضرموت سنة ١٣٩٥/١٩٧٦.

صـــــورة المولـــــــدين الحضارم في الأرخبيل الهندي

(دراسة تحليلية مقارنة لكتابات فان دن بيرخ وأحمد عبد الله السقاف وحامد القادري)

منذ نهاية القرن التاسع عشر حظيت الهجرة الحضرمية باهتمام بعض السياسيين والمؤرخين والأدباء من العرب والأجانب، وذلك بسبب حجمها الكبير وأهمية الدور الذي يقوم به المهاجرون الحضارم وأحفادهم في المناطق التي هاجروا إليها أو ولدوا فيها. وفي الربع الأخير من القرن العشرين أزداد الاهتمام بمختلف قضايا الهجرة الحضرمية لاسيما في إطار نوع جديد من الدراسات الاجتماعية الانثروبولوجية والاستشراقية يُعنى بظاهرة الأقليات و"الشتات diaspora"، فنظمت لها ندوات في لندن وبطرس جراد وماليزيا، وشجعت كثير من الجامعات ومراكز الاستشراق الغربية الباحثين على القيام بدراسات حولها. وفي

اليمن كذلك كرست ندوة (المغتربون: الرافد الأساسي للتنمية المستدامة، ١٩٩٩) جزءاً كبيراً من أبحاثها لدراسة الهجرة الحضرمية.

وإذا كان عدد كبير من الباحثين الذين تناولوا الهجرة الحضرمية لا يميزون بين الحضارم الذين ولدوا في حضرموت وآلاف المولدين الذين ولدوا في المهجر من أب حضرمي وأم من عرق آخر (جاوي أو ملايوي أو هندي أو صيني أو أفريقي) فقد لاحظنا أيضاً أن عدداً محدوداً منهم قد تنبه للتباينات الكبيرة بين شخصية المهاجر وشخصية المولد ورسم صورة خاصة لكل منهما.

ضمن اهتمامنا بدراسة "صورة اليمن واليمنيين في كتابات الأجانب" التي باتت تشكل أحد أهم ميادين البحث في الأدب المقارن، سنحاول في هذا البحث أن نرصد أهم ملامح صورة المولدين العرب في الأرخبيل الهندي، وذلك من خلال القيام بدراسة تحليلية مقارنة للنص الذي كتبه المستعرب الهولندي فان دن بيرخ (حضرموت

والمستوطنات العربية في الأرخبيل الهندي) والذي نقدم في هذا الكتاب ترجمة لجزء كبير منه،(١) ونص (فتاة قاروت)، وهو"رواية انتقادية تتناول عادات المهاجرين الحضارم في جاوه" نشرها أحمد عبد الله السقاف في جاوه سنة ١٩٢٨،(٢) وكذلك النص الذي يتناول فيه المولد حامد القادري (كفاح أبناء العرب ضد الاستعمار الهولندي في إندونيسيا).(٣)

في الجزء الأول من الدراسة سنسعى إلى تقديم تعريف أوّلي للمولدين وتحديد أهم مكونات هويتهم. وفي الجزء الثاني، بعد تحديد طبيعة العلاقة بين المولدين وحضرموت أرض الأجداد وكذلك العلاقة المتذبذبة بين المولدين والمهاجرين الحضارم، سنتناول العلاقة بين المولدين والسكان المحليين الآخرين في الأرخبيل الهندي، وسنبين كيف اصطدم حماس المولدين للاندماج في المجتمعات المحلية بموقف السلطات الاستعمارية العدائي تجاه المولدين من أصل عربي. أما الجزء الأخير فسنكرسه للكشف عن المنطلقات الأيديولوجية

المتباينة التي ترتكز عليها نصوص فان دن بيرخ وأحمد السقاف وحامد القادري.

ومن خلال مقارنة موقف كل من المولدين أنفسهم والمهاجرين الحضارم والسكان المحليين والمستعمرين الهولنديين، نعتقد أنه سيكون بوسعنا في نهاية الدراسة أن نبيّن مدى قدرة أبناء المهاجرين الحضارم وأحفادهم على التكيف والاندماج في المجتمعات التي يعيشون وسطها. (٤)

الجزء الأول: من هم المولدون الحضارم وما أهم مكونات هويتهم؟

يذكر فان دن بيرخ في كتابه (حضرموت والمستوطنات العربية في الأرخبيل الهندي) "أن غالبية العرب المهاجرين في جميع المستوطنات العربية في الأرخبيل الهندي يأتون من منطقة واحدة في حضرموت تمتد من شبام غربا إلى تريم شرقا".(٥) ويلاحظ أيضاً أن العرب الآخرين الذين يمرون

في المستعمرات العربية لا يستقرون فيها. وبما أن المهاجرين الحضارم لا يحضرون معهم زوجاتهم أو بناتهم فهم يتزوجون من نساء محليات (ملايويات أو صينيات أو مولدات، وهؤلاء المولدات هن في حكم المحليات من حيث اللغة والطباع والعادات). لذلك، فالمولدون في جزر الأرخبيل الهندي هم أبناء المهاجرين العرب الحضارم وأحفادهم من أم محلية: جاوية أو ملايوية أو صينية أو مولدة حضرمية. (٦)

ويبرز فان دن بيرخ في الجزء الثاني من كتابه عددا من السمات التي تميّز المولدين الحضارم في الأرخبيل عن أبائهم الحضارم. ومن أهم أوجه الاختلاف تلك: اللغة. "فبما أن الحضارم القادمين إلى الأرخبيل الهندي لا يحضرون معهم نساءهم، فجميع العرب الذين يولدون في هذه الجزر تقريباً يحملون دماءً مختلطة. وإذا كان العرب المقيمون في الأرخبيل الهندي يتحدثون فيما بينهم بلغتهم الأم، فهم في البيت مع أولادهم، لا يستخدمون إلا اللغة الملايوية أو لغة

محلية أخرى التي هي لغة أولادهم. ومع ذلك، ففي المستوطنات الكبيرة، حينما يبلغ الأبناء الذكور سن الرشد يتعلمون شيئاً يسيراً مع اللغة العربية، في الغالب من خلال محادثاتهم مع مواطني آبائهم. أما البنات فلا يتحدثن إلا مع نساء محليات لا يعرفن العربية، وبما أنهن لا يستطعن الحديث مع رجال باستثناء أزواجهم أو محارمهن الذين يخاطبونهن منذ الطفولة بالجاوية أو الملايوية ـ فهن لا يفقهن من العربية إلا بضع كلمات. وفيما عدا بعض الحالات الاستثنائية، لا تستطيع أية بنت منهن الخوض في محادثة حتى بسيطة باللغة العربية".(٧)

ويؤكد فان دن بيرخ أن الحضارم الذين يرغبون في رفد أبنائهم بتعليم متميز يرسلونهم عند أقربائهم في حضرموت. وهناك "يعيشون في بيئة عربية بعيداً عن الوسط الجاوي أو الملايوي المثير للأعصاب. ويبقى الأولاد في تلك البيئة العربية بضعة سنوات يتعلمون خلالها لغة أجدادهم". ولكنه يضيف "ومع ذلك فبضع سنوات في حضرموت لا تكفي

لتحويل مولد إلى عربي حقيقي. فعند عودتهم إلى الأرخبيل الهندي يستخدم كثير من هؤلاء المولدين اللغة الملايوية في حياتهم اليومية بشكل تلقائي ويبحثون من جديد عن أصدقاء الطفولة ويأنفون معاشرة العرب القادمين من حضرموت".(٨)

ومن السمات الإيجابية التي يلصقها فان دن بيرخ بالمولدين: مرونتهم. فهو يرى "أنهم أكثر أدباً ومرونة من العرب المولودين في حضرموت، ويقبلون ممارسة أعمال يرفض آباؤهم القيام بها لأنهم يرونها أقل من مستواهم. ويمكننا أن نلاحظ كذلك أن التقديس الذي تحظى به مكة المكرمة بين السكان المحليين يبرز أيضاً عند المولدين ولاسيما حينما تتسع المسافة الاجتماعية والثقافية بينهم وبين الحضارم. وقد تعرفت على بعض المولدين الذين زاروا مكة ولم يقوموا بزيارة حضرموت. وبالمقابل، لاحظت أن الحضارم يعتبرون الحج فريضة دينية ولا يولونها اهتماماً مبالغاً فيه كما يفعل المولدون. وفي كل الأحوال لا نجد لديهم ذلك

الشعور تجاه مكة المكرمة الذي نجده لدى السكان المحليين".(٩)

وبعكس فان دن بيرخ الذي يرى أن المولدين أكثر التزاما بتعاليم الدين الإسلامي من المهاجرين أنفسهم، لاسيما فيما يتعلق منها بأداء فريضة الحج، يجعل مؤلف (فتاة قاروت) مولده "المتفرنج" يبتعد عن القيم الدينية والأخلاقية السليمة إذ يؤكد أنه "لم يكن متمسكا بالدين كما يجب لأن ذلك في نظره شأن من لم ترتق أفكاره ولم يزل من أهل الجمود. أما من هو مثل حضرته في رقي الأخلاق فلا يحتاج إلى تلك التقاليد".(١٠)

ويؤكد حامد القادري، من ناحيته، أن المولدين قد وقفوا بشدة ضد ممارسة بعض المهن التي يقوم بها آباؤهم العرب وتسببت في تشويه سمعتهم. فهو، مثلا، بعد انتقاله إلى جاكرتا لمواصلة دراسته العليا في كلية الحقوق، صار يشعر "أن هناك، إلى جانب انتمائه إلى وطنه إندونيسيا، أمورا يجب القيام بها. فصورة العرب المقرونة بالربا يجب القضاء

عليها وذلك بالقضاء على الربا بين العرب. لذا أيّد بقوة محاربة الربا، وكان يلح دائما على حزبه ليتخذ الإجراءات الصارمة للقضاء عليه بين العرب".(١١)

وإذا كان حامد القادري يتجنب ذكر أيه صفة سلبية لدى المولدين ففان دن بيرخ لم يتردد في رصد بعض الخصال الحميدة لدى الحضارم والتي تختفي عند المولدين. فهو يلاحظ أن "أول ما يلفت الانتباه لدى الحضارم: نشاطهم وحيويتهم. لكن من المؤسف أن هذه المزايا تختفي بسرعة في أبنائهم الذين، بعد بعثرة وضياع ثروات الآباء، يعيشون في الغالب حياة فاقة خالية من العزيمة والقدرة على استعادة مراكز آبائهم".(١٢)

ولهذا يبدو أن سمعة المولدين كانت في نهاية القرن التاسع عشر أدنى من سمعة العرب المولودين في حضرموت. فكثير من المولدين لا يلتزمون بأعراف عائلاتهم ويسعدهم أن يزوجوا بناتهم من مواطنين محليين لديهم مراكز اجتماعية مقبولة، وبغض النظر عن جنسهم. "بل أن بعضهم

يشرع في لعب القمار وتعاطي الأفيون والكحول. وربما تصبح هذه الميول حادة إذا كان الأب نفسه مولداً ولم يستطع أن يرسل ابنه إلى شبه الجزيرة العربية".(١٣)

وربما لهذا السبب يلاحظ فان دن بيرخ "أن رجال الأعمال يفضلون الحضارم المولودين في حضرموت على غيرهم للعمل لديهم، ولاسيما في الوظائف التي تتطلب أشخاصاً موثوقاً فيهم. أما بالنسبة للمولدين فلا يتم قبولهم إلا في الوظائف الدنيا أو التي تتطلب معرفة خاصة باللغة والعادات المحلية. وهم يطلبون أجراً أقل من العرب الوافدين مؤخرا".(١٤)

وفي رواية (فتاة قاروت) قام المؤلف أحمد عبد السقاف بخلق شخصيتين ثانويتين لكي يستطيع أن يجسد من خلالهما عددا من السمات السلبية للمولدين الحضارم ونقدها. وأولى هاتين الشخصيتين: مولد كانت النتيجة الملموسة لتعليمه في المدارس الأوروبية هي مسخ معظم مكونات هويته العربية الإسلامية، إذ أنه صار مثل الأوروبيين يكره جميع عادات

أبناء جنسه العرب، ولاسيما الحضارم. فالراوي يقول عنه "ورأيه في بني جنسه رأي أغلب الأوروبيين فيهم، حتى لو فرضنا أنه يمكن أن يجد طريقة ينسل بها من العروبة لما تأخر، بل بلغ به كرهه لأصحابه العرب ومجالستهم ومخاطبتهم أنه يُسرّ إذا سمع من يحط من شأنهم ويذمهم بقطع النظر عن كون ذلك المتكلم محقا أو غير محق. وفي نظره العرب، وعلى الأخص أصحابه الحضارم قوم همج رعاع في أحط درجات الوحشية وانحطاط الآداب والأخلاق".(١٥)

أما المولدات فلم يرصد فان دن بيرخ أي فرق بين طباعهن وطباع النساء المحليات ويؤكد تأثر البنات المولدات كثيراً بطباع أمهاتهن المحليات.(١٦) ويقدم الأديب أحمد عبد الله السقاف في روايته (فتاة قاروت) صورتين متباينتين لمولدتين حضرميتين في الأرخبيل الهندي. الأولى هي نيغ التي نكتشف أنها قد نالت قسطا كبيرا من التعليم واستطاعت أن تضطلع ليس فقط بمهمة الدفاع عن أهلها العرب في

الأرخبيل الهندي، بل إنها بيّنت أيضا فضل العرب في قيام النهضة العلمية في أوروبا وسردت لأحد الهولنديين قائمة طويلة بأسماء الكتب الإنجليزية والفرنسية والألمانية التي يرصد مؤلفوها الغربيون كثيرا من إسهامات العرب في شتى فروع المعرفة.(١٧)

والمولدة الثانية التي يقدمها السقاف في روايته هي: سعيدة. ويوظفها المؤلف لتجسيد السلوك السيئ لبعض المولدات. فهي فتاة مدللة يضطر بطل الرواية عبد الله للزواج منها لأنها بنت عمه عبد الرحيم. لكنها لا تطيعه ولا تحتجب من الرجال المحليين، ولا تراعي مشاعر ضيوفه. وحينما يتبرم عبد الله من تصرفاتها يعترف أبوها أنها في الحقيقة لا تنصاع حتى لأوامره هو أو أوامر أمها.(١٨) وحين يوبخ عمر أخاه على عدم تربيته لابنته وفقا للآداب العربية وتركها تتطبع بعادات السكان المحليين يرد عبد الرحيم بأن اندماج أبنائهم المولدين في السكان المحليين وتطبعهم بطباعهم شيء خارج عن إرادته، ويقول له "يا ولدي عمك لا يستطيع وليس في قدرته

أن يغير طباع الناس على حسب ما يحب وتحبون والأشياء بيد الله".(١٩)

الجزء الثاني: علاقة المولدين بحضرموت وسكان الأرخبيل الهندي

٢/١ ـ *علاقة المولدين بحضرموت*

في نهاية القرن التاسع عشر يؤكد فان دن بيرخ أن علاقة المولدين بحضرموت، أرض أجدادهم كانت ضعيفة وذلك لأسباب عدة؛ منها عدم وجود أية علاقة بين أمهاتهم (المحليات أو المولدات) وحضرموت. ولهذا نرى مؤلف رواية (فتاة قاروت) يوظف العلاقة الغرامية بين شخصيتي عبد الله ونيغ لينتقد إقدام المهاجرين الحضارم على الزواج من النساء المحليات. ففي رأيه يدفع هذا النوع من الزيجات المهاجر إلى الاستقرار نهائيا في الأرخبيل الهندي ونسيان حضرموت. وعبد القادر نفسه لم يأت من حضرموت إلا بعد أن سمع بزواج أخيه عبد الله في قاروت. ولهذا يقول له حينما

يقابله في سربايا "الذي شق علينا وشق على والدتك إنا سمعنا يا أخي أنك تزوجت في قاروت ورغبت جم جم هناك، ولعاد تذكر حضرموت. يا خير جودة يا عبد الله! ما أنت داري إن أهل ذيك الأرض أهل سحر وغدر ومكر يخلون الإنسان بلا حس، معاد يذكر أهله وبلاده".(٢٠)

ويكمن السبب الثاني لضعف علاقة المولدين بحضرموت في عدم رغبة الآباء (المهاجرين الحضارم) أنفسهم في العودة إلى حضرموت أو استثمار جزء من ثرواتهم فيها بسبب انعدام الأمن فيها واكتسابهم مستوى معيشي وحياة أرقى وعادات لا توجد في حضرموت، وربما بسبب ماضيهم هناك. ومع ذلك يشير فان دن بيرخ إلى محاولة بعض الأغنياء من المهاجرين إرسال أبنائهم إلى حضرموت ليس فقط بهدف الدراسة هناك لكن أيضاً لتجنيبهم اكتساب بعض العادات السيئة المنتشرة في أرض المهجر. أما البنات فعلاقتهن بحضرموت واللغة العربية معدومة تماماً. ويذكر فان دن بيرخ، الذي يكرس فصلا كاملا من كتابه لدراسة "الفرق العرب في الأرخبيل الهندي والعرب في

حضرموت" الحالات النادرة التي تشذ عن هذه الظاهرة العامة.(٢١) ويؤكد أن إهمال عدد كبير من المهاجرين الحضارم لأبنائهم وبناتهم وتركهم لدى أمهاتهم وأخوالهم المحليين يجعلان القطيعة بين هؤلاء المولدين وحضرموت والعادات العربية تامة. ويكتب في الفصل الثامن من كتابه المكرس لاندماج المولدين الحضارم في الأرخبيل الهندي "كثيراً ما ألتقي بمواطنين جاويين أو ملايويين ذوي ملامح عربية واضحة. وأعتقد أن كثيرا منهم أبناء لنساء محليات قمن بتربية أولادهن بأنفسهن بعد أن مات أزواجهن أو عادوا إلى حضرموت. وقد يكون من بين تلك النساء من عادت لتعيش بين أهلها أو تزوجت مرة ثانية من رجل محلي. وقد ذكر لي بعضهم اسم أرملة منهن تنتمي إلى أسرة محلية مرموقة. إنها بنت سلطان جزيرة باتيان التي تزوجها أحد السادة من حضرموت وأنجبت له ثلاث بنات رباهن جدهن السلطان مثل أولاده الآخرين بعد موت أبيهن. ويقال إنهن يفضلن نمط الحياة التي تعيشها أمهن، وإنهن في المستقبل لن يتذكرن شيئاً عن أصلهن لاسيما أن الحضارم لا يستقرون في

باتيان إلا نادرا. والأرجح أنهن سيقضين سنوات عمرهن دون أن تطأ أقدامهن منزلاً عربياً"(٢٢)

وينتقد أحمد عبد الله السقاف في روايته كثيراً من تصرفات المهاجرين والمولدين الحضارم مثل عدم إقدامهم على استثمار جزء من رؤوس أموالهم الضخمة في حضرموت لكي يسهموا في إنعاش اقتصاد بلادهم ويضعهم بمنأى عن التقلبات الاقتصادية والسياسية في الأرخبيل الهندي، وذلك بلسان أحد المسافرين الذي يلتقي بالبطل عبد الله في القطار المتجه إلى بتافيا (جاكرتا) ويقول له "العرب لهم سنين في جاوه، وفيهم آل با مية ألف، وآل با ميتين ألف، وحد معه ملايين، ومخلين تجارتهم كلها في جاوه. ولو أرسلوا حتى نص متجرهم إلى حضرموت وعمّروا بلادهم كانهم في خير وحقهم محفوظ، والمساكين هناك با يعيشون".(٢٣) وسبق إن أشرنا إلى أن فان دن بيرخ قد تطرق إلى هذه المسألة في الفصل الثاني من كتابه المكرس لـ "طباع المهاجرين الحضارم في الأرخبيل الهندي"، وفسر عدم إرسال

الحضارم ثروتهم إلى بلادهم قائلا: "بعكس الهولنديين، لا يأخذ الحضارم إلى بلادهم جزءا من الثروة التي كونوها في الأرخبيل الهندي. والسبب الرئيسي لذلك هو قلة الأمن في حضرموت"(٢٤).

كما ينتقد مؤلف رواية (فتاة قاروت) بلسان تلك الشخصية الثانوية إهمال المهاجرين الحضارم لمبدأ التكافل والتعاون فيما بينهم، وكذلك عدم ترسيخهم لحب وطنهم لدى أبنائهم. فهو يخاطب البطل قائلا: "ما رأيك في تجار العرب؟ يشوفون بعيونهم الصينيين والفرنج يخرجون الألوف في معزة جماعتهم، والعرب تجارتهم كلها في جاوه، وما لقّوا لهم حتى مركز صحي. يقولون لقّوا لهم سكولات! هيا عسى خير! ما العلمة ما شيء كماها. وعساهم با يعلمون عيالهم شيء ينفع، وبا يقرّونهم بر الوالدين، ويقولون لهم شو بلادكم حضرموت ما شيء كماها! وشوكم إلا غرباء هنا، لأجل ما ينسون بلادهم وأهلهم".(٢٥) ومثل غالبية المولدين الحضارم الذين شعروا في العقد الرابع من القرن العشرين بضرورة

اتخاذ بعض الخطوات من أجل الحصول على حقوقهم السياسية في إندونيسيا، يؤكد المولد حامد القادري في كتابه (كفاح أبناء العرب ضد الاستعمار الهولندي في إندونيسيا) أن معظم أبناء العرب قد تخلصوا من العادات العشائرية الحضرمية، واختاروا إندونيسيا وطنا لهم. وذكّر أن حزب (اتحاد عرب إندونيسيا) قد دعا عند تأسيسه في مطلع الثلاثينات من القرن العشرين المولدين من أصل عربي إلى "أداء واجباتهم كاملة تجاه وطنهم إندونيسيا والمجتمع الإندونيسي. وللقيام بهذه الواجبات عليهم أن يحسنوا من أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وأن يجعلوا من العادات والتقاليد الإندونيسية عاداتهم وتقاليدهم ما دامت هذه العادات والتقاليد لا تتعارض مع الإسلام".(٢٦)

وبالنسبة لعلاقة المولدين بالمهاجرين الجدد المولودين في حضرموت يشير فان دن بيرخ إلى أنها تختلف من مدينة لأخرى. "فطالما لم تشعر إحدى المستوطنات في إحدى المدن أن بإمكانها أن تستمر دون وصول مهاجرين جدد إليها

من "الوطن الأم" فهؤلاء المهاجرون الجدد يلقون دائماً استقبالاً حاراً وينظرون بازدراء أو على الأقل بشيء من الشفقة إلى المولدين ويرون فيهم مخلوقات من طينة دنيا. ويستمر هذا الأمر حتى تبلغ المستوطنة المستوى اللازم من الاستقرار، وتتخلص من الشعور بالنقص مقارنة بـ " الوطن الأم ". وعندئذ تتغير الأدوار، حيث يبدأ المستوطنون المولدون في النظر إلى الوافدين الجدد كدخلاء بل ومغامرين". ويورد فان دن بيرخ أسماء بعض المدن التي لا يحب فيها المولدون المهاجرين الجدد. ففي بونتانياك مثلا، "يرى المولدون في كل قادم جديد من حضرموت منافساً لهم سيعجل من تراجع مراكزهم. وبالمقابل، يلاحظ أن العرب القادمين من مكة يحظون بترحيب جيد من قبل سلاطين تلك المدينة والمولدين الآخرين. أما في بالمبانغ، فالمولدون يفضلون العرب القادمين من حضرموت على العرب القادمين من مكة". (٢٧)

٢/٢ ـ علاقة المولدين بالسكان المحليين (قضية الاندماج):

يبيّن فان دن بيرخ أن عدداً كبيراً من المهاجرين الحضارم قد جاءوا إلى الأرخبيل الهندي قبل القرن التاسع عشر. ويؤكد أنهم، بفضل سلوكهم السوي وأمانتهم وحنكتهم السياسية، استطاعوا أن يكسبوا حب السكان والسلاطين المحليين وثقتهم إلى درجة أن بعض هؤلاء السلاطين قد زوجوا بناتهم من هؤلاء المهاجرين أو من أولادهم، بل إن عدداً من هؤلاء العرب أصبحوا سلاطين في جزر عدة من الأرخبيل الهندي. ويذكر حامد القادري، الذي ضمّن كتابه معظم المعلومات المرتبطة باندماج العرب في جزر الأرخبيل الهندي التي قام فان دن بيرخ بتسجيلها في كتابه، أن جده عبد الرحمن حسين القادري الذي أنشأ مدينة بونتانياك قد توّج سلطاناً لها في سنة ١٧٧٩.(٢٨)

ويشير فان دن بيرخ، الذي يكرس الفصل الثامن بأكمله لقضية الاندماج، إلى أن المولدين العرب في الأرخبيل

الهندي يميلون بشكل عام إلى تبني طباع أمهاتهم وبالتالي إلى الانصهار في المجتمع المحلي حتى أنه بعد بضعة أجيال يصبح من المستحيل اكتشاف أصولهم إذا لم يكونوا ينتمون إلى عائلات متميزة. ومع ذلك يضطر فان دن بيرخ أن يرصد درجة اندماج المولدين في مناطق مختلفة من الأرخبيل الهندي ليبين التفاوت الموجود في عملية الاندماج من منطقة لأخرى، ومن فئة لأخرى. فهو يلاحظ أن "اندماج المولدين العرب يتم في المستوطنات الكبيرة بشكل أبطأ مقارنة بالمناطق التي لا يوجد فيها إلا عدد قليل من العائلات العربية و بالتالي تكون البيئة المحيطة كلها محلية. ويقال إن العربي الذي ينتمي في حضرموت إلى إحدى الفئات العليا في المجتمع يسعى أن يظل ابنه المولود في الأرخبيل الهندي عربياً. وعادة يؤمّن أحد السادة أو أحد الحضارم المتعلمين لأبنائه تعليماً أفضل، كما أنه يصر على تزويج ابنه من فتاة عربية وليست محلية. ولن نجد هذا الإصرار عند رجل عربي لم يكن يهتم في حضرموت إلا بسلاحه ونارجيلته. ومع ذلك ، فجميع هذه العوامل التي تؤدي إلى تأخير عملية

اندماج المولدين في السكان المحليين ليست ثابتة ومطلقة إلى درجة أنها تمنع نهائياً الاندماج. وكل ذلك يفسر لنا ظاهرة أثنية أدهشتني كثيراً وتكمن في عدم وجود إلا عدد قليل جداً من المولدين الذين ظلوا يحتفظون بهويتهم بصفتهم مولدين لعدة أجيال أي أنهم ينحدرون من آباء وأجداد هم أنفسهم مولدون. وفي الحقيقة، قبل القرن التاسع عشر كان عدد العرب في الأرخبيل الهندي محدوداً نسبياً. ومع ذلك، من المسلم به أن أعداداً من العرب قد استقرت في جزر الهند الشرقية منذ بضعة قرون. ويمكننا اليوم مشاهدة مولدين عرب ينتمون لعائلات استقرت في الأرخبيل الهندي منذ وقت طويل، ولاسيما في بونتانياك وكوبو وسياك وباليمبانغ، وهي مستوطنات لا يزيد عمر كل منها (في سنة ١٨٨٦) عن مئة سنة. وباستثناء هذه المستوطنات، لا نجد إلا بعض الجاليات الصغيرة من المولدين الذين ينتمون لأجيال عدة وتعيش معزولة عن بقية العرب المجاورين لهم. أما في المناطق الأخرى، فالمولدون حتى من الجيل الثالث نادرون

جداً. ولا يمكنك أبداً مقابلة مولدين يتجاوزون الجيل الرابع".(٢٩)

ويمكن أن نشير كذلك إلى أن فان دن بيرخ يحاول أن يوظف ظاهرة اندماج المولدين الحضارم وسط السكان المحليين في الأرخبيل الهندي ليفسر عدم قدرة الدارسين على اكتشاف أي عناصر حية (أي أحفاد) للمهاجرين العرب الذين وصلوا إلى الأرخبيل الهندي قبل القرن الثامن عشر. ففي رأيه "لا تكشف هذه المعطيات الشاذة التي ذكرتها المكان الذي استقر فيه أحفاد العرب الذين وصلوا إلى مختلف أجزاء الأرخبيل الهندي عبر القرون الماضية لاسيما أن الجنس العربي يتميز بخصوبته المرتفعة . وأؤكد أننا لا يمكن أن نجد حلاً لهذا اللغز إلا في الاندماج السريع للمولدين العرب في السكان المحليين. وقد كان هذا الانصهار أسرع في الفترات السابقة بسبب قلة عدد المستوطنات مقارنة باليوم".(٣٠)

ومن اللافت أن فان دن بيرخ لا يعترف هنا أن الهولنديين قد سعوا منذ وصولهم إلى الأرخبيل الهندي إلى خلق وسائل

متنوعة لعرقلة وصول العرب إلى الأرخبيل الهندي واستقرارهم فيه وعزلهم في أحياء محددة تشبه "الجيتوهات" بهدف منعهم من الاندماج وسط السكان المحليين. لكن من اليسير أن نكتشف بعض تلك الإجراءات في كتاب فان دن بيرخ. ففي الفصل السابع المكرس لدراسة تأثير الحضارم في السكان المحليين يزعم فان دن بيرخ أن الطبقات العليا من السكان المحليين التي كانت تتفاخر بمصاهرة الحضارم باتت ترفض تزويج بناتها منهم. ويعلق على ذلك قائلا: "أما الآن فقد تغيرت الأوضاع؛ ربما لأن هؤلاء الحكام أدركوا أن الحكومة الهولندية لا تنظر بعين الرضاء الترحيب الذي يلقاه العرب من قبل العائلات المحلية الكبيرة"(٣١) ومن المعلوم أن المستشار الهولندي سنوك هورغرونج قد استطاع في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين أن يضفي على تلك الوسائل صبغة رسمية حينما جعل منها قوانين تمنع منح المولدين العرب الهوية المحلية وتلزم الحضارم وأبناءهم بعدم مغادرة مستوطناتهم إلا بتسريح حكومي.(٣٢) وقد سبق إن أشار فان دن بيرخ إلى جزء من تلك القوانين قائلا

"وخلال السنوات القليلة الماضية تقدم العديد من المولدين الحضارم بطلبات إلى السلطات الهولندية في جزيرة جاوه لكي تعترف بهم مواطنين محليين، وقد رفضت تلك الطلبات. ومع ذلك، فالمركز الاجتماعي لهؤلاء الناس لا يتغير، فهم في الواقع تحصلوا عمليا على الجنسية التي يحرمهم منها القانون الهولندي".(٣٣)

ويقدم حامد القادري مظاهر عدة تبرز درجة اندماج أبناء المهاجرين الحضارم وأحفادهم في المجتمع المحلي. مثل ابتعادهم عن عادات آبائهم ومهنهم كممارسة التجارة ولاسيما التسليف والصرافة اللذان أدخلا في قائمة "الربا". "وأصبحت نساؤهم وبناتهم غير مقيدات في بيوتهن كما كن في الماضي بل يختلطن مع الشباب بحرية، ولا يختلفن عن باقي الأسر الإندونيسية المتعلمة، وكثرت الزيجات بين الإندونيسيين العرب و بقية الإندونيسيين. وهذا يدل على أن عملية الاندماج التي كانت سائدة في الماضي، والتي تعثرت

لفترة من الزمن بسبب السياسة الهولندية، عادت هذه الأيام من جديد".(٣٤)

كما يؤكد القادري على أن أبناء العرب لم يعودوا يمتهنون الزعامة الدينية أو يبحثون عنها. ومن المعلوم أن مسالة زعامة العرب للشئون الدينية في الأرخبيل الهندي قد جلبت لهم في البداية كراهية المستعمِرين الذين سعوا فيما بعد إلى اختراقهم وتوظيفهم لمصلحتهم. وهذا ما جرّ عليهم كراهية السكان المحليين الذين رأوا في بعض العرب عملاء للهولنديين والأجانب الآخرين. وقد ضمّن القادري كتابه "وصية الرئيس سوكارنو للشعب الإندونيسي من أصل عربي، ١٩٤٧" التي يقول فيها سوكارنو: "عليكم تقرير مصيركم بأنفسكم وليس بالأجانب. من الخطأ الكبير أن تعلقوا مصائركم بإرادة الغرباء"(٣٥)

٣/٢ علاقة المولدين بالأوروبيين:

وفي الفصل الثاني من كتابه "طباع الحضارم في الأرخبيل الهندي"، يذكر فان دن بيرخ "أن العرب قد جلبوا معهم من الصحراء نوعاً من الصراحة، كي لا نقول من الوقاحة التي لا تروق لأحد هنا. كما أنها ليست الطريقة المثلى لكسب رضا الحكومة، لاسيما أن العرب، فضلاً عن وقاحتهم، لا يكنون أي احترام للسلطات المحلية الهولندية".(٣٦) وإذا كان بعض العرب في سنغافورة يقبلون إرسال أولادهم إلى المدارس الحكومية الهولندية فهم لا يفعلون ذلك في جاوه. ويلاحظ فان دن بيرخ في الفصل الثاني من كتابه أن "العرب هم الفئة الوحيدة التي تحاول الابتعاد قدر الإمكان من الأوروبيين. فبينما نجد أن الصينيين الأغنياء يسعون عادة للاقتراب من الجالية الأوروبية، فلا شيء من هذا القبيل يوجد عند العرب الذين لا يرسلون أبناءهم إلى المدارس الحكومية، أو مدارس البعثات التبشيرية. ففي مدينة سومينب فقط شاهدت طفلا عربيا في إحدى المدارس الحكومية

الخاصة بالسكان المحليين. ويبدو أن العرب في سنغافورة (الخاضعة للاستعمار البريطاني) يقدرون أكثر مزايا التعليم الأوربي. ففي تلك المستعمرة نجد على الأقل عددا من التلاميذ العرب في المدارس الحكومية. وفي تلك لمدينة يوجد عضو عربي في مجلس الولاية. ومن الأشياء القليلة التي يقدرها العرب عند الأوربيين: دعمهم السخي للبحوث العلمية"(٣٧)

وبشكل عام يفضل الأوروبيون التعامل مع التجار الصينيين وليس مع التجار العرب لأنهم - في اعتقادهم- يهملون كلياً النظافة والمظاهر.(٣٨) وعلى الرغم من ذلك يؤكد فان دن بيرخ أن الأوروبيين يخطئون تماماً حينما يعدون المستوطنات العربية في الأرخبيل الهندي من أكبر مصادر العداء لهم. "فالجميع يرون أن المصالح المادية لعرب حضرموت تتطلب قبل كل شيء استتاب النظام". لهذا يبدأ فان دن بيرخ الفصل السابع المكرس لـ(تأثير الحضارم في السكان المحليين) قائلاً: "إنه من الخطأ الجسيم أن نلصق

بالعرب بشكل عام ميولا عدائية تجاه النفوذ الأوروبي في الأرخبيل الهندي".

أما أحمد عبد الله السقاف فيصور في روايته المولدين كضحية لبعض الممارسات التعسفية التي تقوم بها السلطات الهولندية، كإجبارهم على حمل تراخيص التنقل وعزلهم في جيتوهات. وبالإضافة إلى ذلك يتصدى أحمد عبد الله السقاف لحملات التشويه التي يتعرض لها المهاجرون والمولدون الحضارم المستقرون في الأرخبيل الهندي من قبل المستعمرين الهولنديين الذين كانوا حينئذ يختلقون مختلف الوسائل لإثارة الفرقة بين العرب والسكان المحليين في جاوه. فحينما يحاول الهولندي فان ريدك استغلال فقر مينه وزوجها الحاج مخطي ليتركوا له نيغ خادمة في بيته يعترض رسنا، أحد أقارب مينه، ويشترط موافقة أقارب نيغ. فيغضب الهولندي ويشرع في إلصاق عدد من التهم الباطلة بالعرب ويجعلهم هم المستعمِرين وليس الهولنديين. ويخاطب رسنا قائلا "إنك أحمق جاهل! هل تستعين بعربي في مثل هذا يا

مجنون! أنت لا تعرف أن العرب هم ألد الأعداء لكم معشر الوطنيين، ولولا وجود العرب بينكم لكنتم أحسن حالة. إنني أعجب كل العجب من تعظيمكم وإجلالكم للعرب الذين يأكلون أموالكم ويستعبدون نساءكم ويسخرونكم في مصالحهم و لا تربحون منهم أي فائدة".(٣٩)

ويفعل الشيء نفسه حامد القادري. فهو يحمّل المستعمِرين الهولنديين مسئولية وضع الإندونيسيين من أصل عربي أو صيني ضمن الأقليات الشرقية الأجنبية وخلق شرخ بين الإندونيسيين من أصل عربي والإندونيسيين الآخرين من خلال ممارستهم لسياسة (فرق تسد). ويربط في كتابه (كفاح أبناء العرب ضد الاستعمار الهولندي في إندونيسيا) بين معاداة الأوروبيين للعرب في الأرخبيل الهندي ومعاداتهم للإسلام، ويعدّ الصراع بينهم امتداداً للصراع في الأندلس. ويؤكد حامد القادري أن مقترحات سنوك هورجرونجي السرية تدعو إلى إبعاد العرب والإسلام عن الإندونيسيين.(٤٠)

الجزء الثالث: المرتكزات الأيديولوجية للمؤلفين

١/٣ يذكر **الباحث المستعرب فان دن بيرخ** في مقدمته أنه قد ألف كتاب (حضرموت والمستوطنات العربية في الأرخبيل الهندي) بناءً على تكليف من الحاكم العام الهولندي في باتافيا (جاكرتا) الذي طلب منه (سنة ١٨٨٣) وضع تقرير عن العرب المستقرين في المستعمرات الهولندية وعن المنطقة التي ينحدرون منها. وفي الحقيقة يكشف لنا محتوى الكتاب وطريقة ترتيب فصوله وعرض المعلومات في كل فصل من فصوله أن المؤلف كانت لديه بعض الأسئلة الملحة والخطيرة التي كُلِّف بالإجابة عنها والتي سنجدها تتكرر في كتابات معظم الرحالة الغربيين الذين كتبوا عن حضرموت. فعلى الرغم من أن المؤلف قد صرح أنه سيبدأ بتقديم وصف لحضرموت وسكانها "لأنه من السهل أن نلمس السمات المميزة للمهاجرين العرب حينما نكون ملمين بالظروف السائدة في موطنهم الأصلي"، فهو يبدأ بالإجابة عن السؤال

الآتي: "هل للمهاجرين العرب نشاط إسلامي دعوي؟". ومع أنه يجيب بالنفي، إلا أنه يعود ويطرح السؤال نفسه في بداية الجزء الثاني من الكتاب حيث يكتب "ما الدوافع الفعلية لهجرة هؤلاء العرب في القرون السابقة؟ من المستحيل الإجابة بشكل مؤكد عن هذا السؤال... نتصور عادة أن العرب قد ذهبوا إلى الأرخبيل الهندي منذ بضعة قرون لنشر الدين الإسلامي وممارسة التجارة. لكني أستطيع أن أجزم أنه خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة لم يصل أي عربي إلى باتافيا إلا بغرض الحصول على المال. ولا يستثنى من ذلك بعض العرب الذي يهتمون بالعلم أو الذين يشغلون بعض الوظائف الدينية. وفي الحقيقة يعد القيام ببعض المهام الدينية واجبا تفرضه ظروف الجالية ومصالحها. ومن النادر أن يتم استقدام رجال دين من حضرموت بهدف جعلهم أئمة أو خطباء للمساجد الصغيرة الموجودة في الأحياء العربية. فهؤلاء لا يأتون كي يصبحوا مبشرين بل بدافع الحصول على الأجرة".(٤١)

لهذا يبدو أن الصورة التي رسمها فان دن بيرخ للمولدين العرب في الأرخبيل الهندي قد اعتمدت على منطلقين أيديولوجيين مختلفين: فهو، من ناحية، أراد أن يعكس في كتابه قدرته، كمستعرب وربما كمستشرق، على القيام ببحث علمي "موضوعي" يتكئ على دراسة ميدانية رائدة. وقد نجح في ذلك؛ فما زال كتابه، الذي صدر سنة ١٨٨٦، يعد من أهم المراجع الخاصة بحضرموت والحضارم وأحفادهم في الأرخبيل الهندي. وقد ترك هذا الكتاب أثراً واسعاً في نصوص كل من كتب بعده عن حضرموت، مثل إنجرامس، أو عن العرب والإسلام في الأرخبيل الهندي، من سنوك هورغرونج حتى نايبول. فعلى الرغم من أن فان دن بيرخ لم يزر أبدا حضرموت فهو كرس الجزء الأول من كتابه لوصف حضرموت التي كانت حينئذ لا تزال تعد إحدى المناطق المجهولة في شبه الجزيرة العربية بالنسبة للأوروبيين. وقد قام المؤلف بجمع المعلومات الكثيرة عن حضرموت من مئات المهاجرين الحضارم في باتافيا ومدن الأرخبيل الهندي الأخرى في نهاية القرن التاسع عشر

بطريقة منهجية قام بشرحها في مقدمة كتابه. ولا يزال الجزء الثاني- والأكبر- من الكتاب حتى اليوم يعد من أهم المراجع اللازمة للقيام بأي دراسة اثنولوجية اجتماعية أو تاريخية لاندونيسيا.

ومن ناحية أخرى، لم يستطع فان دن بيرخ أن يتجنب الوقوع في عدد من الأحكام الجاهزة التي عادة ما يلصقها المستعمرون الأوروبيون بسكان الأرخبيل الهندي أو بالعرب. مثل صراحة العربي ووقاحته وخشونته التي جلبها معه من الصحراء. ويرى فان دن بيرخ في اندماج العرب في السكان المحليين "المتوحشين" نوعاً من الانحطاط الذي ينبغي على الأوروبيين تجنبه.

٢/٣ أما **المهاجر السيد أحمد السقاف**، فقد ولد سنة ١٨٨٠ في مدينة الشحر، وتربى في كنف أخواله آل بن عثمان، ثم انتقل إلى سيؤن ومكث فيها بضع سنوات قبل أن يسافر إلى حيدر أباد ثم إلى سنغافورة، ومنها أنتقل إلى باتافيا التي قضى فيها معظم سني عمره. ومثل غيره من الحضارم هناك

سعى السقاف أولا إلى تأمين مصدر رزقه من خلال دخوله شريكا للتاجر عبد الله الحبشي، ثم تأسيسه لمصنع خاص به في مدينة الصلو. ومع ذلك فقد دفعته اهتماماته الأدبية إلى تكريس معظم وقته للقراءة والكتابة، وانكب على مطالعة جميع الصحف والمجلات العربية، وبدأ يحرر بعض المقالات الاجتماعية والأدبية وينشرها في صحيفة (الإصلاح) التي كانت تصدر باللغة العربية في سنغافورة. وكان له دور بارز في الحياة الاجتماعية والتربوية الخاصة بالجاليات الحضرمية في الأرخبيل الهندي، إذ ساهم بشكل فعال في تأسيس (جمعية خير)، وأصبح سكرتيرا لها ومديرا لمدرستها. واضطلع كذلك بدور كبير في تحرير مجلة (الرابطة العلوية) التي تصدى من خلالها لأفكار الحضارم الإرشاديين في الأرخبيل الهندي. ومن المعلوم أن بداية الصراع العلوي - الإرشادي بين المهاجرين الحضارم في الأرخبيل الهندي تعود إلى مسألة الكفاءة في زواج نساء السادة العلويين. ومن الواضح أن السيد أحمد السقاف قد أراد في رواية (فتاة قاروت) أن يبيّن أن زواج السادة العلويين في

الأرخبيل الهندي واندماجهم في السكان المحليين يؤديان إلى الخروج عن المبادئ التي يفرض عليهم انتسابهم للرسول الالتزام بها. ولهذا ينتقد السقاف في روايته التي يسميها (فتاة قاروت أو مجهولة النسب) إقدام عم البطل "السيد عمر" على الزواج من فتاة من السكان المحليين لا يعرف نسبها، وتركه لابنته لدى أخوالها الذين كادوا أن يجعلوا منها حظية لأحد الهولنديين. بالإضافة إلى ذلك، تزامن وصول السقاف إلى جاوه مع اتخاذ السلطات الهولندية - تطبيقاً لتوصيات سنوك- إجراءات تعسفية شديدة تجاه العرب. وتلك الإجراءات التي صورتها الرواية جعلت ليس فقط السقاف بل معظم العرب المستقرين في الأرخبيل الهندي يشعرون أنهم سيضطرون يوماً ما إلى العودة إلى حضرموت.

٣/٣ ويؤكد **الإندونيسي، عربي الأصل، حامد القادري** في مقدمته أن كتابه "له صله وثيقة بسيرة حياة المؤلف".(٤٢) وهو يقدم نفسه على أنه إندونيسي من أصل عربي. ويعترف

أيضاً أنه من أبناء العرب القليلين الذين قبِل أهلهم إرسالهم إلى المدارس الهولندية وذلك لأن "جده وأباه كانا من بين العرب ذوي الأفكار التقدمية".(٤٣) ويحمل القادري مؤهلات جامعية وعليا في الحقوق استطاع أن يصبح بفضلها أحد مؤسسي حزب عرب إندونيسيا PAI ١٩٣٥. وعند اندماج هذا الحزب في اتحاد الأحزاب السياسية الإندونيسية GAPI ١٩٤٥، أصبح عضواً نشطاً فيه. ويشير في نبذة حياته التي يوردها في الكتاب إلى أنه شارك مشاركة فعالة في الحركات الوطنية من أجل الاستقلال، وأصبح عضوا في البرلمان الإندونيسي. ورغم ذلك لم يستطع أن يتبوأ مناصب قيادية في الدولة بعد الاستقلال إذ أنه قد صُنف ضمن الشرقيين الأجانب.

وفي الحقيقة، من اليسير أن نتبيّن أن حامد القادري ينطلق في كتابه (السياسة الهولندية ضد الإسلام والإندونيسيين من أصل عربي في إندونيسيا) الذي تُرجم إلى اللغة العربية بعنوان (كفاح أبناء العرب ضد الاستعمار الهولندي في

إندونيسيا)، من موقف ينبع أساسا من الرغبة في فضح السياسة الهولندية، ممثلة بالمستشار المستشرق سنوك هورغورنج الذي عرقل اندماج المولدين في المجتمع المحلي وسعى إلى تشويه صورة العرب والإسلام لدى السكان المحليين. كما حرص حامد القادري على إبراز وطنية الإندونيسيين من أصل عربي (أي المولدين)، فكرس جزءاً كبيراً من كتابه للحديث عن حزب أبناء العرب و"استفاقتهم" ودورهم في النضال من أجل استقلال إندونيسيا. ولكن من الواضح أن الهدف الفعلي الذي سعى القادري إلى تحقيقه من وراء تأليفه للكتاب باللغة الجاوية (قبل ١٩٨٣، أي قبل وصول عدد من الإندونيسيين من أصل عربي إلى مواقع قيادية مهمة في إندونيسيا) يكمن في إقناع بقية الإندونيسيين بقبول التطبيق الفعلي لمبدأ المساواة عند تعاملهم مع الإندونيسيين من أصل عربي. ولهذا نراه يضمّن كتابه رسالة مهمة وجهها في ٤ أكتوبر ١٩٧٩ إلى آدم ملك، نائب رئيس الجمهورية الإندونيسية يشرح له فيها بقايا سياسة التفرقة التي ما زال الإندونيسيون من أصل عربي يعانون منها

حينئذٍ.(٤٤) كما أن المؤلف أهدى كتابه إلى الرئيس سوهارتو الذي "عيّن عدداً من العرب في مجلس الوزراء. مما يعني دفعة قوية علي طريق حل مسألة الإندونيسيين من أصل عربي والوصول إلى النتيجة المرجوة التي كافحوا من أجلها ويكافح من أجلها هذا الكتاب".(٤٥) ولهذا يمكننا القول إن كتاب (كفاح أبناء العرب ضد الاستعمار الهولندي في إندونيسيا) يدخل في إطار نضال المولدين من أصل عربي من أجل الحصول على حق من حقوقهم وهو: إمكانية الوصول إلى دفة الحكم في وطنهم إندونيسيا.

ويمكن أن نشير هنا إلى أن هذا التباين الموجود بين المنطلقات الاستعمارية لفان دن دن بيرخ وبين المنطلقات الوطنية لحامد القادري قد انعكس في المعلومات التاريخية التي قدماها. فمثلا، يروي فان دن بيرخ تأسيس سلطنة بونتانياك قائلا "ورزق السيد حسين ولدا من أمَةٍ من السكان المحليين. وأصبح هذا الولد، عبد الرحمن القادري، قرصانا. وبسبب ذلك لم يستطع أن يتزوج من أخت سلطان

بانجرماسين. وبعد حياة مليئة بالمغامرات المشينة استقر مع مجموعة من أقرانه، سنة ١٧٧١، في المكان الذي يصب فيه نهر لانداك، وأسس فيه مدينة بونتانياك".(٤٦) بينما يروي حامد القاري، حفيد ذلك السلطان، تلك الأحداث على النحو الآتي: "اعتبر سلطان وسكان ماتان في كاليمنتان أحد العلماء الذي كان اسمه الشريف حسين بن أحمد القادري المقيم في ماتان من ذوي الكرامات. وكان سلطان جيري لايا يحترمه كثيرا وأهداه سيدة جميلة من قبيلة الداياك زوجة له. ولكن ظهر خلاف فيما بعد بين الشريف حسين والسلطان؛ وغضب الشريف حسين غضبا شديدا من السلطان لأنه أمر بقتل ناخوذة سفينة جورا. فأصبحت سلامة هذا العالِم مهددة، وطلب الحماية من ملك ممباوا الذي استقبله ورفعه وعينه وزيرا لديه. وفي ممباوا رزق بطفل من زوجته الداياك عام ١٧٤٢ وسماه عبد الرحمن. وتزوج عبد الرحمن، الذي وصفه المؤرخ الهولندي ويت بالرجل الوسيم ذي الطاقة الفياضة، فيما بعد من أخت ملك ممباوا. لكنه لم يكن يشعر بالرضاء في ممباوا فبدأ يجرب حظه في البحر. وفي

بانجارماسين تزوج من أخت السلطان الأميرة ساريب أنوم، ونجح في تجارته وجمع ما يكفيه لتسليح سفينته، وبدأ ما وصفه ويت بالقرصنة في البحر. ويجب أن نعلم أنه في ذلك الوقت كانت هولندا تسمي أية مقاومة ضد الاستعمار في البحر بالقرصنة. وبعد أن استطاع وبكل شجاعة "قرصنة" السفن الهولندية والبريطانية والبرتغالية أصبح عبد الرحمن من الأغنياء، وبدأ محاولته الناجحة لإقامة مستوطنة فولكس بلانتينج [بونتانياك] في جزيرة تقع في الموقع الذي يلتقي فيه نهر كابواس بنهر لانداك والذي كان مناسبا ليصبح مركزا تجاريا مزدهرا. ومن يومها أصبحت مدينة بونتانياك مركزا تجاريا حيا. وفي الخامس من يوليو من عام ١٧٧٩ وقعت في سيسانغو اتفاقية اعترفت بموجبها شركة فوك الهولندية بعبد الرحمن سلطانا على بونتانياك".(٤٧)

ونجد هذا الاختلاف في سرد بعض الأحداث المهمة من تاريخ الأرخبيل الهندي في الطريقة التي يقدم كل من فان دن بيرخ وحامد القادري شخصية عبد الرحمن الزاهر قائد

حرب أتشيه ضد الهولنديين. ففان دن بيرخ يقدم في الفصل السابع من كتابه "بعض المحطات المهمة في حياة هذا المغامر الذي ولد في حضرموت سنة ١٨٣٢. وقد أحضره أبوه معه وهو ما زال صبيا. إلى مالابار، وتلقى بعض التعليم في كاليكوت، ثم زار جزيرة سيلان والمخا ومكة بدءا من عام ١٨٤٨. وبعد عودته إلى مالابار نجح في كسب ود أمير حيدرأباد الذي منحه، حسب زعمه، رتبة جمعدار أو ضابط. وعلى الرغم من هذه الترقية ترك عبد الرحمن الزاهر الخدمة العسكرية وسافر إلى كلكتا وعمل فيها صائغا. ثم حمل عصا الترحال مرة أخرى وزار إيطاليا وألمانيا وفرنسا والقسطنطينية وعاد إلى الهند البريطانية واستقر فترة من الزمن في شبه جزيرة مالاكا. وظل سنتين أو ثلاث سنوات في خدمة المهارجا في مدينة جهور ثم جاءْ إلى إقليم أتشيه حاملا بعض التوصيات التي لم يكن في الحقيقة بحاجة إليها إذ أنه استطاع أن يبهر بأحاديثه في الشريعة والحقوق العلماء المحليين القائمين على المسجد الجامع الذين عيّنوه كبيرا لهم بعد أن جلسوا معه مرتين أو ثلاث مرات. وبعد بضعة أشهر

صار الرجل الأكثر نفوذا في البلاد. وتمّ تعيينه قاضيا ثم فرض نفسه وزيرا للسلطان. وخلال تلك الفترة، ربما لأنه - كما يزعم- سئم الصراعات المستمرة في الإقليم، أو لأنه أراد أن يعيد العلاقات التي كانت قائمة بين أتشيه والإمبراطورية العثمانية، غادر أتشيه سنة ١٨٧٠ وتوجه إلى القسطنطينية ثم إلى مكة. وقد منحه الباب العالي ميدالية "العثمانية". وفي أثناء إقامته في مكة شنت الحكومة الهولندية حربا ضد سلطان أتشيه وزعمائها الآخرين الذين طلبوا النجدة من البطل الزاهر وعينوه سفيرا لهم لدى الباب العالي والحكومة الفرنسية آملين أن يحصلوا بواسطته على دعم عسكري أو على الأقل دبلوماسي يؤمن لهم استقلال بلادهم. لكن سرعان ما خيّب هذا الأمل. وبعد سنتين تمكن عبد الرحمن الزاهر من التسلل مرة أخرى إلى بولو بينانج، ومنها إلى أتشيه بعد أن أفلت من المراقبة البريطانية. وفي أتشيه تزعم العصابات التي استمرت في الكفاح ضد الحكومة الهولندية. وفي سنة ١٨٧٨، وبعد أن اتضح له عدم وجود آفاق لاستعادة استقلال أتشيه، اقترح على السلطات الهولندية أن تقوم بتهريبه إلى

خارج أتشيه وأن تدفع له دخلا سنويا مقداره ٣٠٠٠ فلوران مدى الحياة. وقد قُبِل هذا الاقتراح، ومنذئذ يعيش عبد الرحمن الزاهر في مكة. ويؤكد جميع الأشخاص الذين عرفوه أنه متبجح ومتشدق كبير. وأعتقد أن تشدقه هذا هو الذي مكنه من النجاح بين السكان المحليين. وقد دفعه غروره وثقته العمياء بنفسه إلى الاعتقاد بأن الحكومة الهولندية ستستدعيه إلى باتافيا لتكلفه ببعض المهام. ثمّ بادر بنفسه وعرض خدماته على الحكومة الهولندية مؤكدا أنه سيضع مشورته ومعرفته بإقليم أتشيه تحت تصرفها".

أما حامد القادري فيقدم عبد الرحمن الزاهر بصفته مولدا مناضلا، وبطريقة مختلفة جدا، إذ أنه يقول عنه: "كان الحبيب عبد الرحمن الزاهر المولود في أتشيه (من تيوبين وان بالقرب من لامجونغ في المقاطعة ٣١) من أبرز قادة حرب أتشيه ومن أصل عربي. وكان يعرف أيضا بالحبيب إيتام واعتبره الناس قائدا أعلى لأتشيه ... وقد استطاع القائد المسلم الحبيب عبد الرحمن - أعظم القادة العسكريين قاطبة

بد عام ١٨٧٨- أن يظهر الولاء التام وأنشأ قوة عسكرية من شعب أتشيه للنضال ضد هولندا. وبذكائه استطاع أن يحل الخلافات التي كانت متأصلة فيه منذ عشرات السنين ويحركه بشكل جماعي، وجمع الكثير من الأموال للدبلوماسية والحرب ولبناء المساجد والأعمال الخيرية الأخرى. وبالإضافة إلى ذلك كان عبد الرحمن الزاهر دبلوماسيا محنكا، ولأجل مصلحة أتشيه ذهب إلى تركيا للحصول على المساعدة. وبعد أن فشلت كل محاولاته، عاد إلى أتشيه منتحلا شخصية تاجر هندي أسمر وحلق شعره ولحيته. وعن مهارته في الدبلوماسية قال أنتوني ريد: لا يوجد خطأ أكبر من قول فان دن بيرخ بأن الكثير من الأوروبيين الذين قابلوا عبد الزاهر تولد لديهم انطباع بأنه فخور بنفسه".(٤٨)

وعلى الرغم من هذا التباين في المواقف والمنطلقات الأيديولوجية يوظف حامد القدري في نصه كثيرا من النتائج التي توصل إليها فان دن بيرخ في كتابه ولاسيما تلك المعلومات المتعلقة باندماج المولدين الحضارم في الأرخبيل

الهندي. ولهذا السبب يميّز القادري بين بيرخ والمستشار الهولندي سنوك هورجرونجي قائلا "لم يكن فان دن بيرخ مثل سنوك، فقد كان عالما بحثا، وكانت نتيجة أبحاثه علمية في طبيعتها. والمهم هنا هو دراسة آراء هذين الرجلين، وإبراز الطابع السياسي في آراء سنوك الذي يُخضِع كل الأدلة - ومنها آراء فان دن بيرخ التي لا غبار على صحتها - لصالح السياسة الهولندية تجاه الإسلام، وذلك بتبديل أو حتى إلغاء الحقائق مما أوجد خلافا شديدا بين هذين الرجلين".(٤٩)

الخاتمة والنتائج وآفاق البحث:

من خلال قراءة نصوص فان دن بيرخ وأحمد السقاف وحامد القادري وتحليلها ومقارنتها تبيّن لنا أن المولدين المستقرين في جزر الأرخبيل الهندي ينتمون اليوم إلى الأرض التي يعيشون فيها أي إلى الأرخبيل الهندي أو، كما يسميه أبناؤه اليوم، الأرخبيل الإندونيسي الملايوي. فما عدا الجزء

"المذكر" من جذور الأجداد ليس هناك اليوم أي صلة تربط هؤلاء المولدين بحضرموت. فحتى في سنة ١٨٨٦ رصد فان دن بيرخ فقدان المولد لمعظم العناصر العربية الموجودة في هوية أجداده وانصهاره الكلي في المجتمع المحلي. ويندهش فان دن بيرخ حينذاك من "عدم وجود إلا عدد قليل جداً من المولدين الذين ظلوا يحتفظون بهويتهم كمولدين. فالمولدون حتى من الجيل الثالث نادرون جداً. ولا يمكنك أبداً مقابلة مولد يتجاوز الجيل الرابع".

وعلى الرغم من وجود بعض العوامل التي كان يمكن أن تؤخر اندماج المولدين العرب في مجتمعات الأرخبيل الهندي أو تعرقله (كرفض العلويين تزويج بناتهم من محليين وأحيانا أولادهم من نساء محليات، وسياسة السلطات الاستعمارية، لاسيما الهولندية، التي سعت إلى عزل العنصر العربي عن بقية السكان) تبرز نصوص المتن جميعها سرعة انصهار المولدين العرب في المجتمع المحلي وذلك للأسباب الآتية:

- من ناحية الأم، ينتمي المولدون جميعاً إلى الأرخبيل الهندي، ومن الواضح أن المهاجر الحضرمي أو ابنه المولد غالباً ما يتركان للأم المحلية وربما لأهلها مسئولية تربية الأولاد. وبالإضافة إلى ذلك تجمع نصوص متننا على وجود علاقات حميمة بين العرب والسكان المحليين، ولم يعد هناك من يذكر أصلهم العربي إلا بعض منافسيهم السياسيين في إطار الحملات الانتخابية.

- وإذا كانت هولندا وبريطانيا قد حاولتا عرقلة اندماج المولدين في المجتمعات المحلية، فمن الواضح أن شعور المولدين بانتمائهم التام للأرخبيل الهندي ورغبتهم في الابتعاد عن الصراعات الفئوية والعشائرية التي برزت بين صفوف الهاجرين الحضارم هناك، وفي الحصول على حقوقهم جميعها بما في ذلك القيام بدور فعال في الحياة السياسية قد أحبطت تلك المحاولات الاستعمارية.

- ويشير فان دن بيرخ، الذي يعبر عن قلقه من أن يفقد الأوروبيون أنفسهم طابعهم القومي -"إذا لم يستمر تدفق

المهاجرين من أوروبا"،- إلى قدرة الجنس الملايوي على امتصاص الجاليات الأجنبية.

لذلك كله نرى أن كلمة "المولدين" العربية، بالدلالات التي يلصقها بها العرب ولاسيما اليمنيون في حضرموت، وكذلك بعض الباحثين الغربيين مثل Enseng Ho لم تعد اليوم صالحة لتسمية الإندونيسيين أو السنغافوريين المنحدرين من أصل عربي. فبما أن معظم مجتمعات الأرخبيل الهندي، لاسيما في سنغافورة وجاوه، هي اليوم مجتمعات ذات طابع كوسموبيليتي، وتعد الهجنة "أي تعدد الأعراق" من أبرز سماتها، يمكننا أن نقرر أن الأصل العربي أو الصيني أو المورو لم يعد مكوناً مهماً من مكونات هوية هؤلاء الآسيويين المستقرين في مختلف مناطق الأرخبيل الهندي بمن فيهم المنحدرين من أصل عربي يمني حضرمي. وإذا كان هناك ثمة علاقات مازالت موجودة، أو بالأحرى برزت مؤخراً، بين الإندونيسيين والسنغافوريين وحضرموت فهي في الغالب تدخل في إطار مجالات الاستثمار والتجارة

والسياحة التي قد تبرّر بالبحث عن الجذور أو بدراسة تعاليم الدين الإسلامي.

ومن ناحية أخرى، في ما يتعلق بهؤلاء الإندونيسيين والسنغافوريين من أصل عربي (وهو في الغالب حضرمي)، يبدو لنا أن ما حققه أحفاد العرب الحضارم من مكاسب سياسية واجتماعية واقتصادية بارزة في مختلف دول الأرخبيل الهندي (وجنوب شرق آسيا بشكل عام) يؤكد قابلية الحضارم للانصهار التام في المجتمعات التي يعيشون وسطها. ولكي يثبت حامد القادري أن اندماج الإندونيسيين من أصل عربي ظاهرة نهائية، يلحق بكتابه تصريح محمد حتي، نائب سوكارنو، الذي يؤكد فيه أنه لا يوجد بين الإندونيسيين من أصل عربي من تنازل عن الجنسية الإندونيسية مثلما فعل بعض الإندونيسيين من أصل صيني.

لهذا نرى أن إدخال دراسة سكان الأرخبيل الهندي المنحدرين من أصل حضرمي في إطار دراسات الشتات (diaspora) يطرح عدداً من المشكلات المرتبطة بالتعريف

الدقيق لمفهوم الـ(diaspora) والأهداف الحقيقية لتلك الدراسات التي نرى أنها، في أحد أبعادها، يمكن أن تهدم بعض ما قد حققه الإندونيسيون والسنغافوريون من أصل عربي في الأرخبيل الهندي بفضل اندماجهم التام في مجتمعاتهم.(50) فمن الملاحظ مثلاً أنه منذ أن تضاعف الاهتمام بظاهرة الهجرة الحضرمية في التسعينات من القرن الماضي شُجِّع بعض الإندونيسيين والسنغافوريين على إصدار مجلة باللغتين العربية والإنجليزية تحمل اسم (المهـــجر) وذلك على الرغم من أن اللغة العربية بالنسبة لهم لغة أجنبية لا يفهمها إلا من تخصص في دراستها في الجامعة.

وبالمقابل يبدو لنا أن الدراسات القادمة يمكن أن تتركز حول أوجه الشبه والاختلاف بين مصير الحضارم الذين استقروا في الأرخبيل الهندي ومصير الحضارم الذين سافروا إلى شرق أفريقيا أو إلى دول الخليج العربي. ونرى كذلك أن دراسة Enseng Ho عن مصير المولدين الذين أرغموا

على العيش في حضرموت يمكن أن تستكمل بأبحاث ميدانية أوسع تتناول مدى تكيّف معظم هؤلاء المولدين في المناطق الأخرى من الجزيرة العربية.

الهوامش:

(١) L. W. C. Van Den Berg, Le Hadhramout et les Colonies Arabes dans l'Archipel Indien, Batavia, Imprimerie du Gouvernement, 1886.
وبما أن اعتمدنا في هذه الدراسة على الترجمة التي قمنا بها للكتاب والتي لم تنشر بعد فسنكتفي في المتن والهوامش بإيراد رقم الفصل من الكتاب.

(٢) أحمد عبد الله السقاف، (فتاة قاروت أو مجهولة النسب)، طبعت بمطبعة البرق بالصولو وتوزيع مكتبة الشيخ عبد الله بن عفيف شيريبون، جاوه ١٩٢٨.

(٣) حامد القادري (كفاح أبناء العرب ضد الاستعمار الهولندي في إندونيسيا)، ترجمة د. زكي با سليمان، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، عدن ١٩٩٨.

(٤) ينحصر هذا البحث في دراسة صورة المولدين الحضارم في الأرخبيل الهندي. ولن نتطرق هنا إلى صورتهم في وطنهم الأم: حضرموت في اليمن، التي كرس لها الباحث الأمريكي إنجسينج هو دراسة بعنوان (Hadhramis abroad in Hadhramaut: the Muwalladin) شارك بها في الندوة التي نظمها معهد الدراسات الشرقية والأفريقية في لندن سنة ١٩٩٥، حول (الهجرات الحضرمية إلى المحيط الهندي ١٧٥٠-١٩٦٧).

(٥) انظر ترجمة الفصل الثاني (طباع المهاجرين الحضارم في الأرخبيل الهندي) في كتابنا (الحضارم في الأرخبيل الهندي).

(٦) ينبغي علينا أن ننبه أن كلمة "مولد" تأخذ هنا معنى تتضمنه معاجم اللغة العربية وإن كان يختلف عن معناها الشائع في العصر العباسي، لاسيما في مجال علوم اللغة. ففي

(لسان العرب) لابن منظور نقرأ ما يلي: "وعربية مولدة ورجل مولد إذا كان عربيا غير محض. والمولدة التي ولدت بأرض وليس بها إلا أبوها وأمها".

(٧) انظر ترجمة الفصل الثاني (طباع المهاجرين الحضارم في الأرخبيل الهندي) في كتابنا (الحضارم في الأرخبيل الهندي).

(٨) انظر المرجع نفسه.

(٩) انظر المرجع نفسه.

(١٠) (فتاة قاروت) ص ٦٧.

(١١) حامد القادري، (كفاح أبناء العرب ضد الاستعمار الهولندي في إندونيسيا)، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، عدن ١٩٩٨، ص (الكتاب ص ٢٠-٢١)

(١٢) انظر ترجمة الفصل الثاني (طباع الحضارم في الأرخبيل الهندي).

(١٣) المرجع نفسه.

(١٤) المرجع نفسه.

(١٥) (فتاة قاروت) ص ٦٨-٦٩.

(١٦) انظر ترجمة الفصل الثاني (طباع الحضارم في الأرخبيل الهندي في كتابنا الحضارم في الأرخبيل الهندي).

(١٧)المصدر نفسه ص ٥٤-٦٤.

(١٨) المصدر نفسه ص ٢٠٢.

(١٩) المصدر نفسه ص ٢٠٧.

(٢٠) المصدر نفسه ص ١٨٤.

(٢١) انظر ترجمة الفصل السادس من كتاب فان دن بيرخ كاملة في هذا الكتاب.

(٢٢) انظر ترجمة الفصل الثامن من المرجع نفسه كاملة في هذا الكتاب.

(٢٣) (فتاة قاروت) ص ١٧٢.

(٢٤) انظر ترجمة الفصل الثاني من كتاب فان دن بيرخ كاملة في هذا الكتاب.

(٢٥) (فتاة قاروت) ص ١٧٣

(٢٦) انظر حامد القادري (كفاح أبناء العرب ضد الاستعمار الهولندي في إندونيسيا)، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، عدن ١٩٩٨، ص ١١٨.

(٢٧) انظر ترجمة الفصل الثامن من كتاب فان دن بيرخ كاملة في هذا الكتاب.

(٢٨) انظر حامد القادري، (كفاح أبناء العرب ضد الاستعمار الهولندي في إندونيسيا)، ص ٦٩-٧٠. وكذلك ترجمة الفصل السابع من كتاب فان دن بيرخ: "تأثير العرب في السكان المحليين".

(٢٩) انظر ترجمة الفصل الثامن (اندماج المولدين الحضارم في الأرخبيل الهندي) في هذا الكتاب.

(٣٠) المرجع نفسه.

(٣١) انظر ترجمة الفصل السابع (تأثير الحضارم في السكان المحليين في الأرخبيل الهندي) كاملة في هذا الكتاب.

(٣٢) حامد القادري، (كفاح أبناء العرب ضد الاستعمار الهولندي في إندونيسيا)، ص ٦٧.

(٣٣) انظر ترجمة الفصل الثامن (اندماج المولدين الحضارم في الأرخبيل الهندي) في هذا الكتاب.

(٣٤) حامد القادري، (كفاح أبناء العرب ضد الاستعمار الهولندي في إندونيسيا)، ص ٩٣ لعلاقة المفتي عثمان بن

يحي بسنوك هورجرونجي، وص ١٦٣ لوصية الرئيس سوكارنو.

(٣٥) المرجع نفسه، ص ١٦٣.

(٣٦) انظر ترجمة الفصل الثاني (طباع الحضارم في الأرخبيل الهندي) كاملة في هذا الكتاب.

(٣٧) المرجع نفسه.

(٣٨) المرجع نفسه.

(٣٩) (فتاة قاروت)، ص ٥٤-٦٤.

(٤٠) حامد القادري، (كفاح أبناء العرب ضد الاستعمار الهولندي في إندونيسيا)، ص ١٠٠. ويكرس القادري السبع الصفحات التالية من كتابه لعرض "مقترحات سنوك السرية لمنع الهجرة العربية وإقصاء الإندونيسيين عن العرب والإسلام".

(٤١) انظر ترجمة الفصل الأول (نشأة المستوطنات العربية وآفاق تطورها) كاملة في هذا الكتاب.

(٤٢) حامد القادري، (كفاح أبناء العرب ضد الاستعمار الهولندي في إندونيسيا)، ص ١٦.

(٤٣) المرجع نفسه، ص ١٦.

(٤٤) المرجع نفسه، ص ١٦٠-١٦١.

(٤٥) المرجع نفسه، ص ٣.

(٤٦) انظر ترجمة الفصل السابع (تأثير الحضارم في السكان المحليين في الأرخبيل الهندي) كاملة في هذا الكتاب.

(٤٧) حامد القادري، (كفاح أبناء العرب ضد الاستعمار الهولندي في إندونيسيا)، ص ٦٨-٦٩.

(٤٨) المرجع نفسه، ص٧٨-٧٩.

(٤٩) المرجع نفسه، ص ١٥٤.

(٥٠) من أهم الأبحاث التي تناولت الهجرة الحضرمية من منظور دراسات الشتات: (William G.Clarence-Smith: Hadhramaut and the Hadhrami Diaspora in the Modern Colonial Era, - Farid Alatas: Hadhramaut and the Hadhrami Diaspora; Problems in Theorical History.in Hadhrami Traders, Scolars and Statesmen in The Indian Ocean, 1750-1960, Brill 1997)

الحضارم من المهجر الشرقي إلى المهجر السعودي في رواية (سالمين) لعمار باطويل

يعتمد المؤلف في رواية (سالمين)، التي تقع في ١٠٧ صفحة موزعة على ثمانية عشر فصلا، السرد بضمير المتكلم (أنا)، وهي تقنية تستخدم في كثير من النصوص السردية الخيالية وتجعل من الراوي مشاركا في الأحداث وربما بطلا، وتقرب تلك النصوص الخيالية من فن السيرة الذاتية، وتضفي عليها شيئا من (الواقعية) .

في الثلاثة عشر فصلا الأولى من الرواية يقوم بالسرد حمد ابن البدوي الدوعني صالح الذي هاجر في مطلع القرن الماضي إلى جاوة (اندونيسيا حاليا)، بعد أن جرّب الهجرة إلى

سواحل إفريقيا والهند وسنغافورة. وفي الفصول الأخرى يتولى السرد سالمين، الذي كان عبدا لحمد وأبيه، قبل أن يصطحبه معه حمد إلى جدة في نهاية الأربعينيات من القرن الماضي، ويصبح تاجرا ويتحصل على الجنسية السعودية. في الجزء الأول من الرواية، يقوم الراوي حمد بتقديم موجز لبعض جوانب الحياة البدوية في قرى وادي دوعن خلال عقدي الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين. وفي ذلك التقديم يسعى الراوي إلى التعميم جاعلا من نفسه ممثلا لجميع سكان منطقته، ويحوّل (أناه) إلى ضمير المتكلم الجمع (نحن)، فهو، مثلا، يقول: "تمضي حياتنا متنقلة وأحيانا مستقرة في مكان ما من الوادي. ففي وقت الخريف ووقت جني المراعي ننزل مع عوائلنا ونحل بين الجبال التي تصبح مأوى لنا، نساؤنا بالقرب منا في جبل يحجبهن عن أنظار الناس والزائرين، نفترش الأرض، ننظر إلى السماء، نبتهل لله ألا يحرمنا من الخير، وأن يرزقنا الأخبار السارة وأمطارا غزيرة تروي قلوبنا العطشانة للمطر ورائحة الأرض وخصوبة الأرض عندما تبللها قطرات المطر، وأن يبلل

حياتنا بالسعادة بعد قسوة الحياة والتنقل بحثا عن مرعى لنا ولأغنامنا وإبلنا". ص١١

أولا- الحضارم والمهجر الشرقي (جاوة)

ومع ذلك فمعظم ما يرويه حمد في الجزء الأول من رواية (سالمين) مكرس لتقديم هجرة الحضارم إلى جاوة (إندونيسيا حاليا): مسبباتها، وأثرها في عادات الحضارم في أرض المهجر وفي حضرموت، لاسيما في الحياة العائلية والاجتماعية بشكل عام، ومشكلة المولدين والجذور ومسقط الرأس، ثم العوامل التي أجبرت الحضارم على مغادرة ذلك المهجر الشرقي والتوجه إلى المهجر السعودي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

بالنسبة لمسببات الهجرة إلى جاوة، يركز الراوي على البحث عن مصدر للقمة العيش، والثروة؛ فهو يذكر أن أمه أخبرته أن "أصعب لحظات الحياة أن يترك الرجل زوجته وأولاده ويهاجر بعيدا عنهم لطلب الرزق، فمنهم من يعيش ويرجع إلى أهله، والبعض تمتد به الحياة ويتناسى أهله ويعيش مع

زوجات أخريات، والبعض يغيبه الموت ولم يحقق أحلامه". ص٤٢-٤٣

وإذا كان معظم الحضارم يغادرون حضرموت طلبا للقمة العيش فهناك أسباب أخرى يمكن أن تجبر الحضرمي على الهجرة إلى جاوة؛ منها الهروب من الثأر. فالراوي حمد يقول: "أخبرتني أمي عن عمي الوحيد الذي هرب إلى جاوة، وكانت هجرته خوفا من الثأر من القبيلة المجاورة لنا التي قتل عمي ابنها، عندما اختلفوا على الأرض، قالت لي ليس هو الوحيد الذي هرب خوفا من الثأر بل جارنا سالم هو أيضا ترك أولاده يواجهون مصيرهم لوحدهم ولم يرجع بعدها للبلاد". ص٤٣

ويخبرنا حمد كيف أن والده، البدوي، الجمّال، الدوعني، استطاع أن يمتهن بنجاح كبير التجارة في سنغافورة ثم في جاوة. ويعبر عن دهشته بنجاح أبيه والحضارم الآخرين هناك، قائلا: "فضلت حياة الوحدة بعد وفاة والدتي. ووالدي في جاوة مشغول بتجارته مثل بقية الحضارم المهاجرين في أصقاع الأرض، يجوبون الجبال والبحار، من أرض إلى

أرض، يتحدثون لغات الأقطار التي ينزلون بها، ويحققون أحلامهم التجارية، وبعضهم تتلاشى أحلامه في المهجر. أفواج من البشر تزحف خارج الوطن يسكنون قلوب الناس، وبعدها ترحب بهم الأرض الجديدة واللغة والعادات الجديدة. أقف في استغراب لهؤلاء الرجال ما إن يذهبوا إلى أرض ما حتى يبزغ نجمهم. فبرغم كل الصعوبات التي يواجهونها، يجعلهم إصرارهم ينجحون خارج وطنهم". ص٢٤

وعلى الرغم من أن الراوي حمد لم يسافر إلى جاوة، فهو يسرد لنا بعض مظاهر حياة المهاجرين الحضارم هناك، وذلك نقلا عن أخته الجاوية، فهو يقول: "جلساتي المتعددة مع خديجة عرفتني الكثير عن جاوة وعن الناس هناك، لاسيما عن والدي. سألتها عنه وعن أصحابه وأعماله، وكيف يقضي وقته في تلك البلاد. علمت منها أن معظم أصحابه من وادي دوعن، أما وقته فيقضيه بين أملاكه، وخاصة فندقه في العاصمة باتافيا (جاكرتا حاليا)". ص٣٧

أثر المهجر الشرقي في الحضارم في أرض المهجر وحضرموت نفسها:

في المهجر يبتعد الحضرمي عن بعض العادات التي يلتزمها في حضرموت، وذلك بسبب اختلاطه بحضارم من فئات اجتماعية أخرى أو بالسكان الأصليين. فحتى الأسماء يختار المهاجر أسماء من غير تلك التي يختارها بني طينته في حضرموت التي يردد سكانها: "بعض الأسامي ما تجيب إلا المرض ** علوي في الضعفاء وفي السادة عوض". ويذكر الراوي حمد بن صالح: "جلست أفكر قليلا، وخديجة تتحدث عن جاوة والناس هناك، وعرفت أن اسمها لا يسميه من ينتمي إلى الأصول البدوية، لكن احتكاك والدي بالناس، وبكل الأجناس غيّر في حياته، وسمى بنته خديجة بدلا من الأسماء المتداولة عند البدو، مثل بركة، عائشة، غيثة، قصع، قرنفل، وفاطمة، وغيرها من الأسماء المتداولة". ص ٣٧

وكما هي العادة يعمد الراوي حمد إلى التعميم ويضيف: "جاوة لم تغيّر في حياة والدي فقط بل غيّرت في حياة الكثير

من الحضارم الذين هاجروا إليها وأسسوا فيها تجارة، فالإنسان عنما يغادر بلاد أجداده تبدأ حياته تتغير شيئا فشيئا، وأصدقاؤه أيضا يتبدلون مع مرور الأيام، حتى تفكيرهم يتغير، ونظرتهم للحياة تختلف عن الماضي."

ويلاحظ الراوي أن الهجرة إلى جاوة في تؤثر كذلك في حياة الحضارم في حضرموت نفسها؛ ويبيّن ذلك قائلا: "خيرات جاوة وصلت إلى حضرموت أيام ما كانت جاوة تعيش حياة السلم، كل من يغني في دوعن يذكرون جاوة في قصائدهم، يريدون السفر إلى جاوة". ويذكر الراوي حمد أن أخته الجاوية قد جعلته يغير حياته في قريته، ويعترف "بعد مجيء خديجة الى دوعن تركت الجمالة وحياة البداوة، خاصة بعد وفاة صديقي سلوم". ص٤٥

ويركز الراوي كثيرا على الأثر الكبير الذي تركته الهجرة في الحياة العائلية في مدن حضرموت وقراها، ويقول: "جاوة خطفت قلوب الحضارم، الكل يحلم بالسفر الى جاوة، والزوجة في الوادي بين الجبال، تنتظر عودة زوجها أو أحد

أبنائها أو أخيها، الكل ينتظر ويترقب اللقاء بين الأحبة، الكثير من الزوجات الدوعنيات لا يعلمن عن زواج أزواجهن في المهجر مثل والدتي، يرحمها الله، وبعد وفاتها وأنا عمري خمس عشرة سنة علمت أن لي أختا في جاوة اسمها خديجة. كان والدي لا يريد أن يجرح مشاعر أمي أمام نساء الوادي، فلو علمت انه تزوج عليها لاعتبرت ذلك أهانة لها ولاعتراها النقص والشعور بأنها ليست كبقية النساء. هكذا يفكرن معظم النساء عندما يتزوج عليها زوجها الزوجة الثانية أو الثالثة". ص٣٨

ويؤكد الراوي أنه، شخصيا، قد أجل الزواج بسبب شعوره بالتأثير السلبي للهجرة: "غياب الرجل عن زوجته خمس سنوات أو أكثر كما يفعل الكثير من المهاجرين، يطفي بريق الحياة الزوجية مع الأيام والسنين، ولذلك السبب تراجعت عن الزواج من مريم، خوفا من أن تمر بمصير نساء الوادي، لأن مصير الكثير من الرجال السفر إلى خارج الوطن، والزواج خارجه. فالسفر إلى جاوة أو إفريقيا أو الهند شتت بالحضارم،

ذهب بهم بعيدا عن أنظار أهلهم وأوطانهم وأبنائهم. ولم أر رقة كرقة قلوب الرجال المهاجرين وهم ينشدون القصائد حنينا للوطن وشوقا للعودة إليه، وهم لا يرجعون. فكيف تحملوا ترك الأحبة في انتظار دائم؟"، ص٣٨-٣٩.

ويمكنني أن أذكّر هنا ما كتبته عن معاناة المرأة الدوعنية والحضرمية بشكل عام في كتابي (حضرموت في كتابات فريا ستارك، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، عدن ٢٠٠٤)، فقد قلت فيه "تتناول الرحالة البريطانية فريا ستارك، التي زارت دوعن عام ١٩٣٥، معاناة المرأة المتزوجة والآثار السلبية التي تتركها هجرة معظم الرجال الحضارم وبقاؤهم سنوات طويلة في الغربة والزواج من امرأة أخرى هناك. وكمثال على ذلك تقدم لنا صديقتها نور، ابنة الحاكم السابق للمصنعة. فقد "كان لها، مثل أعمامها، عينان ناعمتان، وفم واسع، وأصابع طويلة، وملامح طبيعية جذابة، وطيبة ونبل في التعامل مع كل من يقترب منها. وقد تركها زوجها قبل ثلاث سنوات أو أربع وسافر للعمل في

الخارج كما يفعل معظم الرجال في حضرموت. وبين الحين والآخر تصلها منه رسالة. وبما أن هذه المرة الأولى التي يتركها زوجها وحيدة، يحق لها أنْ تعود للسكن مع أهلها، أما المرة القادمة فلن يسمح لها بمغادرة بيت زوجها. هكذا هي العادة في دوعن؛ يعيش الرجال في الغربة بين خمس عشرة سنة وعشرين سنة، وأحيانا يتزوجون هناك من نساء أخريات لأن زوجاتهم المحليات لا يغادرن أبدا الوادي". وتروي فريا ستارك قصة "عطية" التي جاءت إلى المصنعة لتطلب منها دواءً. "كانت فتاة جميلة، وقد غادرها زوجها منذ فترة قصيرة وسافر إلى الصومال. أنها تعاني من ألم مبرح وتريد دواء، وبما أنني كنت نائمة حين وصلت فقد أخذها محمود البواب إلى الغرفة العليا وقام بكيّها بحديد أحمر في أسفل القدمين. وحينما نزلت هبطت خلفي ويبدو أنها قد تعافت تماما ومبتهجة. وغنّت لنا بصوت عذب ونقي ومؤثر قصيدة تتمنى فيها أن يعود زوجها بالسلامة، واختتمتها قائلة: عُد! ابنة عمك تنتظرك وحدها حين يأتي المساء! وحينما ضحكن منها بقية النساء الحاضرات احمر وجهها ومدت ذراعيها قائلة: أليس

هذا صحيحا؟ أليس هو ابن عمي ويحق لي أن أتمنى عودته؟ وحين سألتها:

-وكم من الوقت سيبقى في الغربة؟ ردت:

-آه! من يعرف؟ ربما عشر سنوات. فلتكن مشيئة الله.

وتنهّدت النساء جميعهن، إذ أنّ هذا الهم كان مشتركا؛ فكل واحدة منهن كانت تفكر، دون شك، في زوجها الذي تزوج من امرأة أخرى، بعيدا هناك. وقالت نور:

-إنّ الحياة في هذا العالم قاسية وليست سهلة للنساء كلهن".ص٥١-٥٢

مشكلة المولدين

في مدن وادي حضرموت يطلقون على الحضارم الذين ولدوا في جزر الأرخبيل الهندي [جاوة –إندونيسيا حاليا- وسنقافورة] من أب حضرمي وأم ملايوية: المولدين؛ مولد للمذكر ومولدة للمؤنث. ومن اللافت أن الراوي حمد في رواية (سالمين) يؤكد أن السكان في دوعن يطلقون على

المولدة: (الجاوية). ومن المعلوم أن كثيرا من المهاجرين الحضارم حرصوا على ارسال أبنائهم المولدين من (جاوة) إلى حضرموت للتعليم أو الاستقرار في حضرموت، لاسيما خلال فترة الحرب العالمية الثانية وبعد نيل اندونيسيا لاستقلالها عام ١٩٤٨. ويكرس الراوي الفصل السادس لرصد مغادرة الحضارم لجاوة خلال وبعد الحرب العلمية الثانية، ومنهم والده الذي يرسل بنته خديجة إلى دوعن برفقة السيد علوي.

وقبل أن يشرح حمد، في الفصل السابع، الطريقة التي انتهجها لإعادة تأهيل أخته (الجاوية) خديجة، وتمكينها من استيعاب حياة القرية في دوعن، يبيّن الدلالات السلبية التي تلصق عادةً بلقب (الجاوية)، قائلا: "تزعجني أحيانا ضحكات البنات عندما يسمعن كلمة مكسرة من خديجة، وأحيانا يزيد من حنقي لقب (الجاوية) الذي يطلق على أختي، وهي كلمة تطلق على كل مولدي جاوة من البنات أو الأولاد وفي طيها التصغير والتحقير أو النقص. في بدلاية الأمر لا تعي أختي خديجة

معنى أن يطلق عليها الجاوية، ولا ضير في ذلك، وأحيانا يثير غضبها وحنقها. حاولت أن تنسجم في المجتمع القروي ولكن بصعوبة، فهي خرجت من عالم فسيح إلى عالم ضيق، من مدينة إلى قرية، أشعر بما تشعر به من الضيق". ص٣٥

ويضيف: "حاولت أن أبعد عنها لقب الجاوية الذي يطلق عليها من أهل القرية، لكن مخارج حروفها ووجهها الجاوي تؤكد ذلك، ويجعل اسم الجاوية لصيقا بها بدلا عن اسمها الحقيقي خديجة. لم يخطر ببالي أنه ستكون لي أخت من أم جاوية؛ فحالة الكثير من الحضارم الذين يسافرون إلى جاوة يتزوجون هناك، وفيما بعد يرسلون أولادهم، خاصة الذكور منهم إلى حضرموت، ليتعلموا اللغة العربية، وقد صادفت عددا منهم عندما كنت جمالا مع أبناء البدو، وكنا نحملهم على الجمال مع عفشهم من الساحل إلى الخريبة للتعلم، والبعض منهم يذهب إلى مدينتي تريم وسيؤن، وكانوا مهجنين تماما بدم عربي ودم جاوي، وبشرتهم شديدة البياض، ولغتهم العربية مكسرة". ص٣٦

الجذور ومسقط الرأس

تبين لنا رواية سالمين أن مسقط الرأس أهم من الجذور بالنسبة للمولدين والمهاجرين بشكل عام. وإذا كنا نصر على احتفائنا بحضرمية الآلاف من الحضارم الذين غادروا مسقط رأسهم حضرموت صغارا علينا كذلك أن نتفهم حب المولدين لمسقط رأسهم في الأقطار التي هاجر إليها آباؤهم أو أجدادهم ، كما يفعل ذلك الراوي حمد حينما يلاحظ حب أخته خديجة لمسقط رأسها جاوة؛ فهو يعترف: "خديجة، أختي، لم تنس وطنها جاوة، مسقط رأسها، وكلما جلست وحدها أسمعها تصدر صوتا، وعندما أنصت لها أسمع هذه الكلمات التي لها أثر كبير فيَّ: (ليت المكلا قريبة كل من عزم بالصبح يضوي بنوره)، أتعجب كيف للمهاجرين في تلك البقاع أن يتغنوا للوطن برغم أن البعض منهم لم يزره. أعجبني البيت وسألتها عن مصدره، فقالت لي: "هذه أغنية شيخ البار أسمعه من أبي في جاوة ويردده على لسانه حفظتها منه، والآن أنا أرددها

على نفسي شوقا لأبي، فكلما أردد الكلمات التي يتغنى بها كأنني أشاهده يحدثني، ويغني لي". ص٣٦

ويضيف: "تردد خديجة على لسانها: جاوة، وتعيد الذكريات التي عاشتها هناك مع أهلها، فمسقط الرأس لأي إنسان مهما كانت جذوره يظل المكان المحبب للقلب، لا سيما لمن عاش فيه طفولته وشبابه، وخديجة أختي واحدة من هؤلاء، فهي لم تنس بلادها الأصلية: جاوة مسقط الرأس، بل ترى أن جاوة هي أرضها وتحلم بالعودة إليها". ص٣٧

ومع لك يحاول الراوي أن يقنعنا بإمكانية تكيّف الموالدة والجاويات – في النهاية- مع الحياة الضيقة في قرى حضرموت. فبالسنبة لأخته خديجة "كانت الاشهر الاولى هي الاصعب في حياتها في وادي دوعن، تشعر بفرق كبير بينها وبين بنات الوادي، ولولا موت أمها في جاوة ربما لم يكن والدي ليرسلها إلينا، فهي أصبحت غريبة في الوادي، لكن مع الأيام والشهور تعدل لسان خديجة وبدأت تنطق (حالك) بدلا من (هالك)، و(حلوة) بدلا من (هلوة). ولم أستغرب هذا التغيّر

السريع في حياتها وتأقلمها مع بنات الوادي وحياة الوادي، وكنت متأكدا أن حياتها ستتغير، لكن مع الكثير من الصبر". ص٤٥

ثانيا- الحضارم في المهجر السعودي في رواية (سالمين):

أسباب هجرة الحضارم إلى السعودية وبعض سماتها

من المعلوم أن اختيار كثير من الحضارم، لاسيما الدواعنة، السفر إلى أرض الحجاز يعود إلى ما قبل القرن الماضي. وهناك عدد من الحضارم الذين تبوأوا بعض المناصب الدينية والسياسية في الحجاز قبل الحرب العالمية الثانية (انظر مسعود عمشوش: الدواعنة في الحجاز). ومما لا شك فيه أن هجرة الحضارم إلى السعودية اتسعت بشكل كبير بعد الحرب العالمية الثانية. فمنذ ذلك الحين أصبحت السعودية، لأسباب مختلفة، هي المحطة الأولى للمهاجرين الحضارم. وفي نهاية الفصل التاسع من رواية (سالمين) يشرح حمد أسباب تحول الحضارم من المهجر الشرقي في جزر الأرخبيل الهندي إلى المهجر السعودي، قائلا: "جاوة لم تعد حلم الحضارم بعد

الحرب العالمية الثانية، بل أصبحت السعودية الحلم الجديد الذي بدأ الكثير يرنو إليه".ص٥٠ ويقول بشيء من التفلسف لكي يبرر قراره الشخصي بالسفر إلى جدة: "كنت الشاهد على توافد أهل جاوة إلى حضرموت، وسفر البعض إلى السعودية، فالحياة لا تتوقف في حد، ولا حدود للحياة، والناس في الحياة لا حدود لأفراحهم وأحزانهم، الحياة تعلمنا الدروس، لكن من ذا الذي يستفيد؟ السفر إلى جدة، وخاصة إلى جدة أخذ يدغدغ أفكاري. ويبدو أنه لا مشقة في ذلك والتجارة بقرب مكة خير من التجارة في مناطق بعيدة، وباستطاعتي تكوين تجارتي من المال الذي ورثته من أملاك أبي في جاوة. أمرت صالح عوض وكيل أبي أن يبيع بعض ما يملك والدي وإرسال ثمنه إليّ. لأن الأخبار التي تأتي من تلك البلاد لا تسر، إذ استولت الحكومة على أموال الناس، والحياة تصعب على الحضارم، والأموال لا تتدفق على حضرموت كما كانت". ص٥٠ ونتبيّن لاحقا أن صالح، والد حمد، كان قد أدى فريضة الحج من مهجره الشرقي، وقام باستخراج جواز

سفر سعودي –وبالتالي جنسية سعودية- وأضاف فيه اسم ابنه حمد، وقام كذلك باستثمار جزء من ماله في جدة.

ومن الأمور التي يبرر بها حمد قراره السفر إلى جدة: الأوضاع السيئة التي كانت حضرموت تمر بها حينذاك، فهو يقول: "ما عليَّ إلا أن أشق طريقي إلى أرض الحجاز التي ذاع صيتها، والناس يسافرون إلى هناك، والأرزاق متوفرة وكثيرة، والأمان يسود، بينما في حضرموت القلاقل وقطع الأرزاق، وانجرامس مع حكومته يفرضون ضرائب على البدو". ص٥٠-٥١

إضافة إلى ذلك، يذكر الراوي سالمين أن من أسباب هجرة الحضارم، بعد مغادرة بريطانيا لأراضي الجنوب، رغبتهم في الهروب من النظام الاشتراكي وكثير من الإجراءات التي فرضها، مثل التأميم والخدمة العسكرية الإلزامية. ويؤكد الراوي سالمين: "كان الوصول إلى السعودية يعني تحقيق حلم التجارة والغناء بسرعة، الوجوه تتدفق من كل مكان إلى السعودية، وكان النصيب الأكبر للجيران (اليمن)، إذ حصلوا

على فرص كثيرة واستثمروها وحققوا تجارة لا يستهان بها في المملكة العربية السعودية، فبعد وصولنا بعقود إلى السعودية اعتقدنا أن الهجرة ستتوقف بعد قيام الجمهوريات في الشمال والجنوب، لكننا رأينا العكس، فقد جاءت بعدنا أجيال، ولكل جيل خصوصيات وظروف مختلفة، فالجيل الذي أعقبنا، الذي جاء بعد قيام حكومة الجنوب، كانت هجرته بسبب قلة العمل وتأميم الدولة للبيوت، والأشخاص كلهم موظفون لدى الدولة، لا تجارة ولا استثمار، وسبب آخر: هو الخدمة العسكرية التي ينفر منها الشباب، ولا يريدون تأديتها ويضطرون للهجرة إما بجواز شمالي أو عن طريق التهريب، وفيما بعد تُصرف لهم إقامات". ص٧٨

ويُبرز الراوي إحدى أهم السمات التي، في رأيه، تميز هجرة الحضارم إلى السعودية عن هجرتهم إلى جاوة. فالهجرة إلى السعودية ضمت عددا كبيرا من الصبية الحضارم للعمل في البيوت. ويذكر حمد أنه عندما وصل إلى جدة نزل ضيفاً على سعيد ابن خاله الذي عمل صبيا عند إحدى الأسر المكاوية،

ويقدمه على النحو الآتي: "سعيد أحد المهاجرين الدواعنة الذين سافروا مبكرا إلى مكة قبلي بحدود عشرين سنة، كان عمله شاقا مع الأسرة المكاوية، أول ما وصل مكة ذهب به أحد أقاربه إلى عائلة مكاوية تريد صبيا يغسل الصحون، ويجيب لهم البضاعة من البقالة وبعض أمور البيت، مثله مثل الكثير ممن سبقوه، خاصة الدواعنة الذين اشتغلوا صبيانا في بيوت أهل مكة يغسلون الصحون. وبعد مرور سنوات أصبح البعض تجارا صغارا وكبرت تجارتهم، مثل سعيد ابن خالي". ص٥٧-٥٨ ويذكر حمد أن كثيرا من هؤلاء الصبية غيّروا أسماء عوائلهم الحضرمية إلى أسماء عوائل مكاوية من أجل الحصول على الجنسية السعودية. ص٥٩.

سالمين ومشكلة التمازج في المهجر السعودي:

من اللافت أن يحرص حمد، الذي جاء إلى جدة من حضرموت حيث لا تزال راسخة التركيبة الاجتماعية التقليدية التي تقسّم الحضارم إلى قبائل ومشائخ وقروان ومساكين وعبيد، والذي صُدِم كثيرا بما يعتمل في مجتمع ميناء جدة من

تمازج وتزاوج بين السكان المسلمين من مختلف الأقطار والأجناس والفئات الاجتماعية منذ مئات السنين، على اصطحاب عبده الأسود سالمين معه إلى جدة، وأن يمنحه حريته والجنسية السعودية، وأن يجعله مساعدا له في تجارته.

ومن الواضح أن ذلك الحرص يعكس رغبة مؤلف رواية (سالمين) في تقديم بعض الظواهر التي برزت وسط المهاجرين الحضارم في السعودية وأبنائهم وأحفادهم من وجهة نظر أحد المهاجرين الحضارم الذين يقعون في أسفل التركيبة الاجتماعية التقليدية في حضرموت: العبد الأسود سالمين.

وفي الجزء الأول من الرواية يترك المؤلف مهمة تقديم سالمين لسيده حمد الذي قال عنه: "سالمين أحد أملاك والدي. اشتراه من وادي حجر، حالته كحال الكثير من العبيد الذين يشترونهم من مناطق قريبة أو بعيدة من حضرموت". ص٢٤

ولأن حمد كان في حضرموت يراعي كثيرا مشاعر عبده سالمين فقد أخفى عنه تفاصيل كثيرة عن أصله، لكنه في جدة، وبعد أن لاحظ التغير الكبير الذي طرأ على سالمين لم يتردد

في الكشف له عن حقائق مؤلمة تتعلق بجذوره. وقال له: "هكذا يا سالمين نسيت البلاد بعدما وصلت إلى جدة، التهيت بالتجارة والمال وأصبحت حرا بعد العبودية وحياة التعب والبهذلة في تلك الجبال والأودية، ولعلك نسيت أبوك وأمك، ولم تبحث عنهم بعدما كبرت، ورزقك الله بالعيال والبنات والأحفاد. هكذا يا العبد.." ص٦٥

لهذا، عندما طلب سالمين من سيده حمد أن يخبره عن هوية أبيه وأمه يرد عليه: "يا سالمين، أنا لا أعرف لا أبوك ولا أمك. والدي اشتراك من تاجر من وادي حجر اسمه محمد عامر مقابل ثور. ولأول مرة يعرف سالمين أنه تم بيعه مقابل ثور. حاولت ألا أخبره بالحقيقة، لكن كانت زلة لسان مني بعد أن أخفيت هذه الحكاية لسنوات طوال عندما كنا نعيش في دوعن، لكن في مدينة جدة لا سر يختفي، وكل شيء ينكشف مع مرور الأيام. عندما سمع سالمين بالثور اهتز في مكانه، صمت للحظة ثم جهش البكاء، وقال لي: أرجوك يا سيدي حمد ألا تخبر أحد بحكاية الثور، أريد أن يكون هذا سر بيني وبينك إلى يوم القيامة، خاصة أولادي وأحفادي لا أريدهم

يعرفون أنه قد تم بيعي مقابل ثور". ص٦١ ويواصل الراوي حمد حديثه معمما: "سالمين العبد حالته كحالة الكثير من العبيد في حضرموت الذين لا يعرفون آبائهم أو أمهاتهم، فمن تمّ بيعه في السوق وهو صغير، وبيع أمه وأبوه في مكان آخر في حضرموت أو البلدان الأخرى المجاورة، أو تمّ اختطافه وهو صغير، لا يعرفون شيئا عن أهلهم". ص٦١

وقد لاحظ الراوي حمد اهتمام عبده سالمين بظاهرة التمازج بين الفئات الاجتماعية والأجناس السائدة في جدة، والتي يطلق عليها "التهجين"، وقال: "كلما جلس سالمين مع أبنائه يعيد الحديث عليهم، ويوضح لهم فوائد التهجين في عالم مهجّن، ويشرح لهم شهوة التغير التي حصلت في جدة، فمعظم سكان جدة غيّروا من عاداتهم ومن شكلهم أيضا. فجدة مدينة الشهوة في كل شيء، لا شيء فيها غير قابل للتغيّر والتحول عبر الزمن من مرحلة إلى أخرى. ويكرر سالمين "وليش ما نهجّن عيالنا؟ وكل جدة مهجنة وقابلة للتغير، في حاراتها، في ناسها، وكل سنة تتبدل جدة بناس آخرين آتين من كل بقاع الدنيا، ويتم التهجين على مراحل وعلى مستوى العوائل؛ فهناك عوائل لا

تحمل من تاريخها إلا الاسم فقط، فلو ننظر إلى أشكالهم نجدهم أشد بياضا من آبائهم وأجدادهم، لأنهم تهجنوا وتم الزواج من سلالة تختلف عن سلالتهم. تناسوا أصلهم وأرضهم، غرتهم حياة الدنيا كما غرتني، ومن حقي أن أهجنكم، فليس حلالا عليهم وحراما عليّ. وإلا هم بيض ونحن سود يحرم علينا التهجين؟". ٦٩-٧٠

فبعدما استقر سالمين في جدة وتحولت حياته من العبودية إلى الحرية، وتحول إلى تاجر يملك الملايين وعمارات وفنادق في ومكة والمدينة، تزوج من امرأة بيضاء. ويخبرنا الراوي حمد أن "عقدة سالمين وسواده المفرط دعته أن يجمع أبناءه ذات يوم في مجلسهم ونصح كل واحد منهم ألا يتزوج من اللون الأسود". ص٦٧

وفي الواقع لم تكن ظاهرة (التهجين) محصورة في فئة معينة من المهاجرين الحضارم، فحتى نهاية الستينيات من القرن العشرين، لم تختلف الهجرة الحضرمية إلى السعودية، فيما يتعلق بطبيعتها الذكورية، عن الهجرة إلى جاوة أو إلى سواحل شرق إفريقيا. فالذكور هم فقط من كانوا يهاجرون

للعمل، ويتزوجون هناك بنساء من المحليات أو من بنات المغتربين من الجنسيات الأخرى، وربما، في فترة لاحقة من بنات المهاجرين الحضارم الذين تزوجوا من نساء غير حضرميات. ويؤكد حمد أن ابن خاله سعيد قد "تزوج من عائلة سعودية من الطائف أصولها مغربية، وكان أولاده يختلفون كثيرا عن أبناء الحضارم في لون بشرتهم وهيئتهم". ص٦١ وبالنسبة له، يعترف أنه، بعد مرور سنوات من وصوله إلى جدة، تزوج من سوسن، فتاة حضرمية تحمل اسم عائلة مكاوية. وكانت زبونته في أحد محلات الذهب! وكان مهرها تسجيل أحد محلاته باسمها. ويذكر حمد إنه أسرع في الزواج من سوسن، حضرمية الأصل ومكاوية المولد، والتي لم تكن مخلصة له، كرد فعل لما قام به ابن خاله سعيد، ويؤكد أنه "لولا زواج سعيد من الطائف لما تزوجت سوسن". ص٦١

ويخبرنا العبد سالمين أن أرملة سيده حمد "سوسن المكاوية، تحولت إلى عاشقة، وتحول ابنها حسن إلى كل جنسيات

الإبداع، من شاعر إلى كاتب إلى أديب، هي شهوة الحياة وعقدتها ومرضها التي تجعل الكثيرين يريدون أن يصبحوا شخصيات كبيرة ومعروفة وهم في الحقيقة لا شيء. لست أدري لماذا العظماء دائما أبناؤهم ضعفاء ومتسلطون. الشيح حسن أخذ من طباع أمه المكاوية، ولا غرابة أنه لا يشبه أباه، ومن شابه أمه فقد ظلم". ص٩٩

وكل ذلك لم يمنع سالمين أن يمتدح التهجين قائلا في نهاية الرواية: "عشت ثلاثة عوالم، عالم الطفولة والخطف، وعالم العبودية، وعالم التهجين في جدة، الذي أبصر النور لأحفادي الذين بدأ البعض منهم يتزوجون من بنات الحجاز أصلا وفصلا على سنة الله ورسوله، لكي ينبثق النور بعد الظلام، وتتبدد سيرة رجل أسود، ويبقى للون المهجن نكهته الخاصة التي تميزه عن الكثير من الأجناس". ص١٠٣

نقد أحفاد المهاجرين الحضارم في السعودية

ومع ذلك انتقد سالمين كثيرا من سلوكيات أبناء المهاجرين الحضارم في جدة "الذين يشبهون أمهاتهم!"، ويتنكرون

لجذورهم، ويرفضون زيارة حضرموت أو حتى سماع اسمها، ويقول: "أنا لا أستحي من حضرميتي برغم أنني أسود، وأرفع رأسي في جدة عندما يسألوني أنت من فين؟ أقول لهم من حضرموت، وليس كما يفعل البعض من عيال المهجنين الذين يقولون لك بلا خجل: "يا بوياااا أنا مش حضرمي، أنا سعوووودي ...". سالمين شاهد على تغيرات جدة، فأراد الله أن يمد بعمره ليشاهد بعينه التغيرات في حياته وحياة أحفاده الذين أصبح وضعهم مثل وضع البعض من أبناء الحضارم، الذين تهجنوا وأصبحوا يمقتون بلاد أجدادهم ولا يزورونها، وعندما يطلب منهم مجرد زيارة للبلاد يسمع منهم سالمين العبارة التي يسمعها عادة من الكثير من أبناء الحضارم وخاصة من أحفاده: يا بويا بلا حضرموت وبلا قرف، خلينا نروح إلى مصر بيروت أو باريس، إيش نسوّي في حضرموت، كلها غبار وقرافة". ص٦٩-٧٠

وبسبب سلوكيات بعض أبناء المهاجرين الحضارم في جدة يضطر سالمين إلى مقارنة المهجر الشرقي بالمهجر السعودي، قائلا: "كانت جاوة سلة الحضارم والأرض التي

يزرع فيها وينبت، وكلما تحركت التجارة هناك نرى حضرموت يصلها جزء من الحركة، وكلما ضاق الحال على جاوة ضاق حال حضرموت في أقصى الجزيرة العربية، جاوة هي المنطقة التي ستظل سيرتها بحضرموت والحضارم سيرة عطرة، سيرة بنيت على أساس قويم، وهو أساس الصدق والمحبة والعطاء بين الحضارم وأهل جاوة. كل من ذهب إلى جاوة جاء ومعه خير كبير، فكل البيوت عمرت في حضرموت من خير جاوة وخير إفريقيا، كان الشباب يذهبون إلى تلك البلاد يطلبون الرزق ويؤسسون لهم تجارة متواضعة، والبعض تجارة متوسطة أو تجارة كبيرة، والقرش يجيب القرش، وترسل القروش إلى البلاد لبناء البيوت وتعمير حضرموت". ص٩٩-١٠٠

إضافة إلى ذلك، يذهب سالمين إلى ربط النجاح التجاري لبعض أبناء المهاجرين في جدة بالمال الذي كسبه أجدادهم الحضارم في جاوة، إذ يقول: "كان الشيخ حسن [ابن حمد من سوسن المكاوية] يتشدق في كل مجلس بأنه تعب في التجارة،

ولا يعلم أن التجارة أسسها جده صالح في جاوة، ومن ثم نقلها والده إلى مدينة جدة. وبعد صبر ومكافحة وصل سيدي حمد إلى خير كبير بفضل الله ثم بفضل مال والده الذي أسسه في جاوة". ص٩٩

في الختام، أعتقد أنه من الصعب إدانة سلوك الموالدة الإندونيسيين من أصل حضرمي أو المهجنين السعوديين من أصل حضرمي، فكما سبق إن ذكرنا- يظل الانتماء إلى مسقط الرأس أقوى من الانتماء إلى الجذور أيا كانت. وقبل أن يرفض (المهجنين الحضارم) في السعودية العودة إلى حضرموت، رفض أحفاد الحضارم الموالدة في جاوة، في ثلاثينيات القرن الماضي، مطالب آبائهم الذين توزعوا بين إرشاديين وعلويين، بوضع حب حضرموت قبل حبهم لإندونيسيا التي اعتبروها وطنهم الأجدر بولائهم. ويبدو لي أنهم على حق.

المهاجرون الحضارم في رواية (فتاة قاروت) لأحمد السقاف

منذ مطلع القرن العشرين تمكن عدد من الأدباء الحضارم، ولاسيما من بين الذين اختاروا الاستقرار في الأرخبيل الهندي، من الجمع بين قراءة كتب التراث العربي والإسلامي والاطلاع على بعض إرهاصات الحداثة العربية التي تحتويها الصحف والمجلات والكتب التي تصلهم من مصر والشام.(١) ويبدو أن هؤلاء الأدباء قد تفاعلوا بشكل إيجابي مع تلك الإرهاصات وسعوا، كغيرهم من الأدباء العرب، للخروج من أسر القوالب الأدبية التقليدية وتجريب بعض الأجناس الأدبية الحديثة. ومن المعلوم أن علي أحمد باكثير- وهو ابن لأحد المهاجرين الحضارم في جاوه- قد حاول أن يقترب من الجنس المسرحي في (همام أو في عاصمة الأحقاف) قبل أن تطأ قدمه أرض الكنانة. وفي باتافيا (جاكرتا الحالية)، عاصمة جزيرة جاوه التي كانت تخضع

للاستعمار الهولندي، قام الأديب أحمد عبد الله السقاف بنشر روايتين عربيتين: (فتاة قاروت) سنة ١٩٢٨، و(الصبر والثبات) سنة ١٩٢٩.

وكان أحمد عبد الله السقاف قد ولد سنة ١٨٨٠ في مدينة الشحر، وتربى في كنف أخواله آل بن عثمان، ثم انتقل إلى سيؤن ومكث فيها بضع سنوات قبل أن يسافر إلى حيدر أباد ثم إلى سنغافورة، ومنها أنتقل إلى باتافيا التي قضى فيها معظم سني عمره. ومثل غيره من الحضارم هناك سعى السقاف أولا إلى تأمين مصدر رزقه من خلال دخوله شريكا للتاجر عبد الله الحبشي، ثم تأسيسه لمصنع خاص به في مدينة الصلو. ومع ذلك فقد دفعته اهتماماته الأدبية إلى تكريس معظم وقته للقراءة والكتابة، وانكب على مطالعة جميع الصحف والمجلات العربية، وبدأ يحرر بعض المقالات الاجتماعية والأدبية وينشرها في صحيفة (الإصلاح) التي كانت تصدر باللغة العربية في سنغافورة. وكان له دور بارز في الحياة الاجتماعية والتربوية الخاصة

بالجاليات الحضرمية في الأرخبيل الهندي، إذ أسهم بشكل فعال في تأسيس (جمعية خير)، وأصبح سكرتيرا لها ومديرا لمدرستها. واضطلع كذلك بدور كبير في تحرير مجلة (الرابطة العلوية) التي تصدى من خلالها لأفكار الحضارم الإرشاديين في الأرخبيل الهندي.(٢)

وفي (فتاة قاروت) التي يعرفها المؤلف في الغلاف بأنها "رواية غرامية انتقادية تتضمن انتقاد بعض عادات المهاجرين الحضارم في الأرخبيل الهندي"، يقدم الأديب أحمد عبد الله السقاف في أسلوب شيّق جملة من أفكاره وآرائه المرتبطة بعادات المهاجرين الحضارم وسلوكهم في الأرخبيل الهندي التي سبق له إن أفصح عنها في صحيفتي (الإصلاح) و(الرابطة العلوية). كما سعى المؤلف إلى توظيف شخصيات روايته في سبيل عرض موقفه الرافض لاندماج المولدين الحضارم في المجتمع المحلي في جاوه.

وتبدأ الرواية حينما يقرر البطل عبد الله، الذي وصل من حضرموت إلى الأرخبيل الهندي لإنجاز بعض الأمور

المتعلقة بتركة والده، أن يقضي بعض الوقت للاستجمام في منتجع قاروت الواقعة في شرق جزيرة جاوه. وهناك يرى للحظات فتاة تدعى نيغ ويقع حالا في حبها ويقدم على الزواج منها حتى دون أن يراها ثانية أو أن يتأكد من أصلها ونسبها.(٣) وفي اليوم التالي للزواج يضطر أن يغادر قاروت للذهاب إلى سنغافورة لمقابلة أخيه عبد القادر الذي جاء ليعود به إلى حضرموت. لكن قبل العودة إلى حضرموت عليهما أن يزورا عمهما عبد الرحيم الذي يقيم في مدينة سربايا في جنوب شرق جاوه. وهناك يقتنع عبد الله بالزواج من المولدة سعيدة؛ فهي بنت عمه و"من دمه ولحمه". إلا أنه يكتشف، بعد أيام من الزواج، أن سعيدة لا تحتجب عن الشباب الغرباء أو الباعة الجوالين الذين لا يبيعون بضاعتهم في جاوه إلا داخل البيوت. لهذا يضطر عبد الله أن يطلق بنت عمه حتى دون أن يعاشرها بسبب اختلاف طباعهما.

وعلى الرغم من تعاطف المؤلف مع شخصيتي عبد الله ونيغ فهو في الحقيقة يستخدم العلاقة الغرامية بينهما لينتقد إقدام المهاجرين الحضارم على الزواج من النساء المحليات. ففي رأيه يدفع هذا النوع من الزيجات المهاجر إلى الاستقرار نهائيا في الأرخبيل الهندي ونسيانه لحضرموت. فعبد القادر لم يأت من حضرموت إلا بعد أن سمع بزواج أخيه عبد الله في قاروت. لهذا يقول له حينما يقابله في سربايا "الذي شق علينا وشق على والدتك إنا سمعنا يا أخي أنك تزوجت في قاروت ورغبت جم جم هناك، ولعاد تذكر حضرموت. ويقولون إنك تزوجت هناك. يا خير جودة يا عبد الله! ما أنت داري إن أهل ذيك الأرض أهل سحر وغدر ومكر يخلون الإنسان بلا حس، معاد يذكر أهله وبلاده".

وبالإضافة إلى ذلك يرى المؤلف أن زواج المهاجرين الحضارم في جاوه يؤدي إلى تشتيت الأبناء وضياعهم. فكثير من هؤلاء المهاجرين لا يستقرون بسرعة في مدينة معيّنة ويظلون أولا يتنقلون بين مدن الأرخبيل الهندي. وفي كل

مدينة يتزوجون ويتركون أبناءهم عالة على أخوالهم الذين يهملون تربيتهم، وربما لا يتورعون - بسبب الفقر- من المتاجرة بأعراض البنات. فـ"مينة"، أم نيغ بطلة الرواية، تزوجت لمدة ثلاث ليال فقط من مهاجر حضرمي لم تتعرف حتى على اسمه. وتقول في حكايتها لبنتها نيغ: "كنت ذلك الوقت عند والدي، فنزل عنده ضيف عربي حبيب لما رآني طلبني من أبي وأخبرني أبي. فلما نظرته رأيت أنه رجل عربي ظريف ورضيت به وكنت أظن انه يبقيني زوجة له وينقلني إلى محل خاص وينفق علي ويساعد والدي وغير ذلك. فلما تم عقد النكاح ودخل علي لم يمكث عندنا إلا ثلاث ليال وبعدها ذهب وكنت قد حملت بك منه. ولم نعرف له خبرا إلى الآن. وكم سألنا عنه العرب، ولم يفدنا أحد بشيء، حيث أنه بعد العقد علق الطلاق كما هي العادة".(٤)

لهذا تحاول مينة أن تجنب بنتها المصير الذي تكبدته هي، وتطلب من زوجها الحالي، الحاج مخطي، أن يقنع نيغ بالقبول بالزواج من الهولندي فان ريدك الذي لا يريدها في

الحقيقة إلا حظية، وتقول له: "نريد المساعدة منك وبذل ما في وسعك لإقناع البنت بالزواج من فان ريدك فإنه يحبها كثير ومائل إليها، لكن البنت الظاهر أنها لا تعرف مصلحتها ولا مصلحتنا. فنحن إذا لم نزوجها لهذا يأخذها سنداني أو عربي ويحملنا نفقته ونفقتها، وإذا ولّدها ذهب وترك لنا أولاده نربيهم ويكفي ما قد صار".(٤) ولهذا السبب، حينما يستلم عبد القادر الرسالة التي تبعثها نيغ لزوجها الغائب يعلق قائلا "الله يهدي هذا الزقر! بغيناه يخرج إلى حضرموت، إيه يلقي بالزواج! با يطيّر بعياله في ذي الأرض". ويمكننا أن نقارن هذا الرأي بما يؤكده فان دن بيرخ في الفصل الثامن من كتابه (حضرموت والمستوطنات العربية في الأرخبيل الهندي) حينما يقول "كثيراً ما ألتقي بمواطنين جاويين أو ملايويين ذوي ملامح عربية واضحة. وأعتقد أن كثيرا منهم أبناء لنساء محليات قمن بتربية أولادهن بأنفسهن بعد أن مات أزواجهن أو عادوا إلى حضرموت. وقد يكون من بين تلك النساء من عادت لتعيش بين أهلها أو تزوجت مرة ثانية من رجل محلي. وقد ذكر لي بعضهم اسم أرملة منهن تنتمي إلى

أسرة محلية مرموقة. إنها بنت سلطان جزيرة باتيان التي تزوجها أحد السادة من حضرموت وأنجبت له ثلاث بنات رباهن جدهن السلطان مثل أولاده الآخرين بعد موت أبيهن. ويقال إنهن يفضلن نمط الحياة التي تعيشها أمهن، وإنهن في المستقبل لن يتذكرن شيئاً عن أصلهن لاسيما أن الحضارم لا يستقرون في باتيان إلا نادرا. والأرجح أنهن سيقضين سنوات عمرهن دون أن تطأ أقدامهن منزلاً عربياً".(٦)

وقد يلجأ مؤلف رواية (فتاة قاروت) إلى خلق بعض الشخصيات الثانوية ليعبر بها عن بعض آرائه. فهو، مثلا، يوجه انتقادا أخر للمهاجرين الحضارم لعدم إقبالهم على استثمار جزء من رؤوس أموالهم الضخمة في حضرموت لكي يسهموا في إنعاش اقتصاد بلادهم ويضعهم بمنأى عن التقلبات الاقتصادية والسياسية في الأرخبيل الهندي، وذلك بلسان أحد المسافرين الذي يلتقي بالبطل عبد الله في القطار المتجه إلى بتافيا (جاكرتا) ويقول له "العرب لهم سنين في جاوه،وفيهم آل با مية ألف، وآل با ميتين ألف، وحد معه

ملايين، ومخلين تجارتهم كلها في جاوه. ولو بتّلوا(٧) حتى نص متجرهم إلى حضرموت وعمّروا بلادهم كانهم في خير وحقهم محفوظ والمساكين هناك با يعيشون".(٨) وتجدر الإشارة إلى أن فان دن بيرخ تطرق إلى هذه المسألة في الفصل الثاني من كتابه المكرس لـ "طباع المهاجرين الحضارم في الأرخبيل الهندي"، وفسر عدم إرسال الحضارم ثروتهم إلى بلادهم قائلا: "بعكس الهولنديين، لا يأخذ الحضارم إلى بلادهم جزءا من الثروة التي كونوها في الأرخبيل الهندي. والسبب الرئيسي لذلك هو قلة الأمن في حضرموت"(٩).

وبلسان تلك الشخصية الثانوية ينتقد المؤلف إهمال المهاجرين الحضارم لمبدأ التكافل والتعاون فيما بينهم، وكذلك عدم ترسيخهم لحب وطنهم لدى أبنائهم. فهو يخاطب البطل قائلا: "ما رأيك في تجار العرب؟ يشوفون بعيونهم الصينيين والفرنج يخرجون الألوف في معزة جماعتهم، والعرب تجارتهم كلها في جاوه، وما لقّوا لهم حتى مركز

صحي. يقولون لقّوا لهم سكولات! هيا عسى خير! ما العلمة ما شيء كماها. وعساهم با يعلمون عيالهم شيء ينفعن وبا يقرونهم بر الوالدين، ويقولون لهم شو بلادكم حضرموت ما شيء كماها! وشوكم إلا غرباء هنا، لأجل ما ينسون بلادهم وأهلهم".

كما قام المؤلف بخلق شخصيتين ثانويتين آخرتين كي يستطيع أن يجسد من خلالهما عددا من السمات السلبية للمولدين الحضارم ونقدها. وأولى هاتين الشخصيتين: مولد كانت النتيجة الملموسة لتعليمه في المدارس الأوروبية هي مسخ معظم مكونات هويته العربية الإسلامية، إذ أنه صار مثل الأوروبيين يكره جميع عادات أبناء جنسه العرب، ولاسيما الحضارم. فالراوي يقول عنه "ورأيه في بني جنسه رأي أغلب الأوروباويين فيهم، حتى لو فرضنا أنه يمكن أن يجد طريقة ينسل بها من العروبة لما تأخر، بل بلغ به كرهه لأصحابه العرب ومجالستهم ومخاطبتهم أنه يُسرّ إذا سمع من يحط من شأنهم ويذمهم بقطع النظر عن كون ذلك المتكلم

محقا أو مبطلا. وفي نظره العرب، وعلى الأخص أصحابه الحضارم قوم همج رعاع في أحط درجات الوحشية وانحطاط الآداب والأخلاق".(١٠)

وبعكس فان دن بيرخ الذي يرى أن المولدين أكثر التزاما بتعاليم الدين الإسلامي من المهاجرين أنفسهم، لاسيما فيما يتعلق منها بأداء فريضة الحج، يجعل مؤلف (فتاة قاروت) "مولده المتفرنج" يبتعد عن القيم الدينية والأخلاقية السليمة إذ يؤكد أنه "لم يكن متمسكا بالدين كما يجب لأن ذلك في نظره شأن من لم ترتق أفكاره ولم يزل من أهل الجمود. أما من هو مثل حضرته في رقي الأخلاق فلا يحتاج إلى تلك التقاليد".

والشخصية الثانوية الأخرى التي يوظفها مؤلف (فتاة قاروت) لتجسيد السلوك السيئ للمولدين الحضارم هي سعيدة، الفتاة المدللة التي يضطر بطل الرواية عبد الله للزواج منها لأنها بنت عمه. لكنها لا تطيعه ولا تحتجب من الرجال المحليين، ولا تراعي مشاعر ضيوفه. وحينما يتبرم عبد الله من تصرفاتها يعترف أبوها أنها في الحقيقة لا تنصاع حتى

لأوامره هو أو أوامر أمها.(١١) وحين يوبخ عمر أخاه على عدم تربيته لابنته وفقا للآداب العربية وتركها تتطبع بعادات السكان المحليين يرد عبد الرحيم بأن اندماج أبنائهم المولدين في السكان المحليين وتطبعهم بطباعهم شيء خارج عن إرادته، ويقول له "يا ولدي عمك لا يستطيع وليس في قدرته أن يغير طباع الناس على حسب ما يحب وتحبون والأشياء بيد الله".(١٢) وكان عبد الرحيم قد اقترح على ابن أخيه أن يأخذ زوجته إلى حضرموت ليعيشا معا هناك "لأن حضرموت أضمن لصيانة الأعراض من هذه البلاد كما لا يخفاكم".(١٣) لكن عبد الله يختار الانفصال نهائيا عن بنت عمه المولدة ويخبر عمه بذلك قائلا "إنني بكل أسف أرى نفسي عاجزا عن التطبع بطباع تتفق مع المألوف في هذه البلاد. وأرى أن الاستمرار على هذه الحالة سيؤدي قطعا إلى وقوع شيء في خاطركم عليّ، وهذا ما أخشاه وأرى أن قطع المسألة هو خير وسيلة لبقاء الجميل والجبر بيني وبينكم".(١٤) وبعد إتمام الطلاق يقرر عبد الله العودة إلى حضرموت. لكنه، قبل الرحيل إلى هناك، يعرج وأخوه عبد

القادر وعمهما عمر إلى قاروت، وهناك يكتشف أن نيغ هي في الحقيقة فتاة "شريفة" من سلالة الرسول، إذ إنها بنت عمه عمر الذي كان، في الحقيقة، ذلك "العربي الحبيب الظريف" الذي تحدثت عنه مينه مع بنتها نيغ.

وبالإضافة إلى ذلك يتصدى أحمد عبد الله السقاف في روايته (فتاة قاروت) لحملات التشويه التي يتعرض لها الحضارم المستقرين في الأرخبيل الهندي من قبل المستعمرين الهولنديين الذين كانوا حينئذ يختلقون مختلف الوسائل لإثارة الفرقة بين العرب والسكان المحليين في جاوه. فحينما يحاول الهولندي فان ريدك استغلال فقر مينه وزوجها الحاج مخطي ليتركوا له نيغ خادمة في بيته يعترض رسنا، أحد أقارب مينه، ويشترط موافقة أقارب نيغ. فيغضب الهولندي ويشرع في إلصاق عدد من التهم الباطلة بالعرب ويجعلهم هم المستعمِرين وليس الهولنديين. ويخاطب رسنا قائلا "إنك أحمق جاهل! هل تستعين بعربي في مثل هذا يا مجنون! أنت لا تعرف أن العرب هم ألد الأعداء لكم معشر الوطنيين،

ولولا وجود العرب بينكم لكنتم أحسن حالة. إنني أعجب كل العجب من تعظيمكم وإجلالكم للعرب الذين يأكلون أموالكم ويستعبدون نساءكم ويسخرونكم في مصالحهم و لا تربحون منهم أية فائدة".(١٥) وللرد على تلك التهم يستعين المؤلف ببطلته نيغ التي نكتشف أنها قد نالت قسطا كبيرا من التعليم واستطاعت أن تضطلع ليس فقط بمهمة الدفاع عن أهلها العرب في الأرخبيل الهندي، بل إنها بيّنت أيضا فضل العرب في قيام النهضة العلمية في أوروبا وسردت لفان ريدك قائمة طويلة بأسماء الكتب الإنجليزية والفرنسية والألمانية التي يرصد مؤلفوها الغربيون كثيرا من إسهامات العرب في شتى فروع المعرفة.(١٦)

الهوامش:

(٥١)ويبدو أن هذا الاطلاع يعود إلى القرن التاسع عشر إذ أن فان دن بيرخ يشير في الفصل الرابع من كتابه (حضرموت والمستوطنات العربية في الأرخبيل الهندي)

الذي أصدره سنة ١٨٨٦ إلى أن معظم الحضارم الأغنياء الساكنين في باتافيا وسنغافورة يشتركون في بعض المجلات العربية. (انظر ترجمة الفصل في كتاب الحضارم في الأرخبيل الهندي، مسعود عمشوش).

(٥٢)في (رحلة جاوه الجميلة) يقدم صالح علي الحامد الأديب أحمد السقاف على النحو الآتي: "والأستاذ أحمد عبد الله السقاف شاعر كبير، وأديب خفيف الروح، وهو أحد أقطاب النهضة الأدبية في مهاجر الحضارمة. وله في تطوير الأساليب الدراسية هناك ضلع كبير. وهو روائي قدير، ومما اشتهر له روايته (فتاة قاروت) وهي جزءان، وله غيرها من المؤلفات. كما أنه شاعر من الدرجة الأولى بين الحضارمة ويمكن أن يسمى بحق شيخ شعراء حضرموت. وقد تولى إدارة "مدرسة خير" زمنا، وترأس تحرير مجلة الرابطة العلوية. ويعد أحد الذين توطنوا جاوه إذ مضى له أكثر من أربعين عاما بها، ويقيم الآن بالصولو". صالح علي الحامد، (رحلة جاوه الجميلة)، تريم للدراسات والنشر، تريم ٢٠٠٢.

(٥٣)لهذا وضَع المؤلف في غلاف روايته عنوانا "تحتيا" هو: (مجهولة النسب).

(٥٤)في الفصل السابع من (حضرموت والمستوطنات العربية في الأرخبيل الهندي) كتب فان دن بيرخ "من المعلوم أيضا أن العرب يوظفون بشكل جيد هذا الاحترام الذي يحظون به في الأرخبيل الهندي. فالصيني مثلا لن يستطيع أن يجد له زوجة إلا من الفئات الدنيا من السكان المحليين. والأوروبي، الذي من النادر جدا أن يتزوج من امرأة محلية، لن يجد له حظية إلا في أسفل الفئات الدنيا من المجتمع الجاوي أو الملايوي. بينما يستطيع العربي أن يقيم علاقات مصاهرة مشرفة مع السكان المحليين". (انظر ترجمة الفصل كاملة في هذا الكتاب). وتجدر الإشارة كذلك إلى أن المستشرق والمستشار الهولندي سنوك هورجرونجي قد تزوج من بنت أحد رجال الدين العرب المهمين في باندونج. (انظر حامد القادري ص ٩٥).

(٥٥)أحمد عبد الله السقاف، (فتاة قاروت أو مجهولة النسب)، طبعت بمطبعة البرق بالصولو، وتوزيع مكتبة الشيخ عبد الله بن عفيف شيريبون، جاوه، ص ٢١٨.

(٥٦)انظر ترجمة الفصل كاملة في في كتاب الحضارم في الأرخبيل الهندي، مسعود عمشوش.

(٥٧)يعني: أرسلوا.

(٥٨)(فتاة قاروت)، ص ١٧٢.

(٥٩)انظر ترجمة الفصل الثاني كاملة في كتاب الحضارم في الأرخبيل الهندي، مسعود عمشوش.

(٦٠)(فتاة قاروت)، ص ٦٨-٦٩.

(٦١)المصدر نفسه، ص ٢٠٢.

(٦٢)المصدر نفسه، ص ٢٠٧.

(٦٣)المصدر نفسه، ص ١٩٤.

(٦٤)المصدر نفسه، ص ٢٠٧.

(٦٥)المصدر نفسه، ص ٤٢-٤٣.

(٦٦)المصدر نفسه، ص ٥٤-٦٤.

(رحلة جاوه الجميلة) لصالح بن علي الحامد

من المعلوم أن أبناء حضرموت يميلون كثيرا إلى حياة الترحال والاتصال بالآخر، والتثاقف معه، وربما الانصهار في بوتقته، كما حدث في الأرخبيل الهندي وجزر القمر وسواحل شرق أفريقيا. وإذا كان كثير من الحضارم يتركون وطنهم في الغالب للبحث عن لقمة العيش، فقد حمل عدد منهم عصا الترحال بهدف زيارة بعض المناطق التاريخية أو المقدّسة كمصرَ والعراق وفلسطين وتركيا، وأحيانًا لمجرد التعرف على بلاد "الآخر"، لاسيما إذا كانت مشهورة بطبيعتها الجميلة. وقام عددٌ من هؤلاء الحضارم بتدوين رحلاتهم. وتجدر الإشارة إلى أن الباحث عبد الله الحبشي قد كرّس الجزء الأكبر من كتابه (الرحالة اليمنيون: رحلاتهم شرقًا وغربًا) للرحالة الحضارم.

ولا ريب أنّ الأديب والمؤرخ صالح بن علي الحامد من أبرز هؤلاء الرحالة. فمن المعروف أنّ مؤلف دواوين (نسمات الربيع، وليالي المصيف وعلى شاطئ الحياة)، ومؤلف كتاب (تاريخ حضرموت)، قد ولد في مدينة سيؤن عام ١٩٠٣ من أم إندونيسية من أصل حضرمي، تزوّجها أبوه في سربايا الواقعة في جنوب شرق جزيرة جاوه. وفي سنة ١٩٢٣ اصطحبه أبوه معه إلى سنغافورة التي زارها بعد ذلك مرتين وقضى فيها بضع سنوات من عمره. ومنها قام بثلاث رحلات طويلة إلى جزيرة جاوه. وقد أراد الحامد أن يعطي لرحلته الثالثة - التي بدأها في أكتوبر ١٩٣٥- بُعدًا علميًا استكشافيًا وبُعدا أدبيا إذ أنه قام بتدوينها. وحينما أجبرت الحرب العالمية الثانية الأديب صالح الحامد على البقاء في حضرموت، أخذ يشكو ظروف تلك الحرب وما سببته له من بعاد عن جنة جاوه التي يطلب منها أن تزوره في خياله:

يا جَنَّتي فارقتُ سوحَكِ باكِيا ورحلتُ عنْ مغْنــاكِ غَيْرَ عَزوفِ

إنْ لمْ أَزُرْكَ وحالَ دونَكِ حائلٌ زوري بطيْفِكِ في الخَيــالِ وطوفي

لوْلا عوادي الحرْبِ لمْ تطُل النوى سحقـــا لها كمْ دلهْمَتْ بصُـرُوفِ

وقد نشر صالح بن علي الحامد عددا من قصائده في مجلة "أبولو" وصحيفة "النهضة الحضرمية" و"فتاة الجزيرة" وغيرها من الصحف والمجلات العربية. واليوم يعد الحامد أحد رواد الاتجاه الرومانسي في الشعر الحديث في اليمن.

وفي نهاية عام ٢٠٠٢ قام مركز تريم للدراسات والنشر بإصدار رحلة صالح بن علي الحامد إلى جاوه. وكان اتحاد الفنانين اليمنيين - شعبة سيئون قد نشر (رحلة جاوه الجميلة) بالاستنسل سنة ١٩٩٥. كما قام الباحث عبد الله الحبشي بنشر ٢٠ صفحة منها في كتابه (الرحالة اليمنيون) سنة ١٩٨٩.

في مقدمة الكتاب يبرّر المؤلف إقدامه على تدوين رحلته بأهمية جاوه وشهرتها وجمال طبيعتها. فهو يؤكد على "شأن

جزر الهند الشرقية الهولندية، ومكانتها في العالم، وما أتاها الله من حُسن الموقع وخصوبة التربة وجمال المنظر، حتى أصبحت من أهم بقاع الدنيا وأشهرها". ويذكّر أيضًا بمكانة جاوه "السامية جدًا في نظر الحضارم لكونها أصبحت وطنًا ثانيًا لهم يحتوي على عشرات الألوف من الناطقين بالضاد، وممن كانوا هم وآباؤهم من قاطني حضرموت. هذا عدا كونها أصبحت منبع ثروة الحضرمي ومصدر موارده بحيث غدا مركز حضرموت المالي متعلقا تعلقا تاما بجاوه، ويتأثر به قوة وضعفا ورقيا وانحطاطا".(١)

ويتكوّن متن (رحلة جاوه الجميلة) من أربعة عناصر متداخلة: يتضمن الأول منها تقديما علميا للجزيرة. ويتكوّن العنصر الثاني من الرصد الزماني والمكاني للرحلة، بينما يحتوي العنصر الثالث على وصف المشاهد الطبيعية. أما الجزء الرابع والأوسع فهو تقديم لعددٍ كبيرٍ من "الشخصيات البارزة" التي التقى بها المؤلف في أثناء رحلته.

ويقع الجانب العلمي من الرحلة في ثلاثين صفحة (من مجموع ٢٢٥ صفحة) يتحدث المؤلف فيها عن اسم جاوه في الماضي والحاضر، وعن موقعها ومناخها وتاريخها، وحكومتها ونظم التعليم والزراعة والمواصلات فيها. وتتضمّن (رحلة جاوه الجميلة) عددًا من المعلومات السوسيولوجية حول طباع العرب الحضارم والسكان المحليين وعاداتهم، وأجناسهم المختلفة، ولغاتهم. ومن أبرز السمات التي يلصقها بأهالي جاوه المحليين: "اللين ودماثة الأخلاق ومحبة الغريب، وحسن معاملته، ولين الجانب معه، واشتهروا بالأمانة والقناعة والرضا بما قسم الله. غير أن هذه القناعة قد خرجت عن حدها إلى التكاسل وعدم العناية بالتجارة وجمع المال وتنميته حتى قل بينهم الأغنياء. وأكثر نشاطهم متجه إلى الزراعة، ولديهم استعداد وقابلية للفنون الجميلة، وحسن الخط والرسم. ويتقنون بعض الصنائع كزركشة الأزر الباتيك، وصناعة الأحذية وبعض الأشياء التي تنسج من الخوص. كما دخل صنائعهم الآن نسج الأزر الملونة".(٢)

وأحيانا تأخذ المعلومات التي يقدمها الحامد عن السكان المحليين طابعا أنثروبولوجيا. هذا ما نلمسه مثلا في وصف سكان جزيرة بالي المحاذية لجزيرة جاوه. فهو يقدّمهم قائلاً: "والباليون عُراة الظهور والصدور لا يلبسون غير الأزر لاسيما النساء؛ فهنّ يأنفن من ستر أجسامهن حرصًا على التقاليد التي يبالغون في التعصب على إتباعها على الرغم من قربهم من جاوه. فهم ما زالوا على حالة القرون الوسطى، إذ لم تؤثر عليهم المدنية بشيء. ولأمر ما كانت الحكومة تتشطّ فيهم هذه الرجعية (...) ومن الفكاهة أن جاء إلىّ في حين طوافي في هذه البلدة فتىً حين رآني حاملاً آلة التصوير أسرّ إلى قائلاً: يمكنك أن تصور آنسة بدفع ريال جاوي فقط. فقلت له : هذا يمكنني من غير دفع ريال. فقال أعني أنّه تصورها عارية. فقلت له وهذا أيضًا في مقدوري. وما أكثر العاريات في هذه البلدة! فقال: لا. إنّما أعني أنْ تصوّرها عارية كيوم ولدتها أمها وتأخذ لها رسومات على هيئات مختلفة، كما هي عادة بعض السياح. قلت له: أنا لا آخذ إلا مثل هذه المناظر –

وأريته بعض الرسوم الطبيعية. فقال وما الفائدة في هذه؟ قلت هذا عندي هو الجمال. فهزّ رأسه وقال : هذا عقلك".(٣)

وإذا كان العنصر السردي الزماني في رحلة الحامد ليس مهما، فالعنصر المكاني يكتسب – بالمقابل – أهمية كبيرة: فالمؤلف عادة ما يبدأ بتقديم وافٍ ومتعدد الجوانب – جغرافي، تاريخي، سياسي، اجتماعي – للمدينة أو القرية التي يصلها وذلك بأسلوب علمي رصين لا يعوزه الجمال. فحينما يصل الحامد إلى باتافيا مثلاً، يكتب: "وباتافيا عاصمة جاوه بل وسائر جزائر الهند الشرقية الهولندية، وتقع على نهر سيليوغ. وهي عبارة عن مجموعة من القرى متجمعة، وتخطيطها وهندسة أبنيتها في الغالب على النمط الهولندي، وتحتوي على مبان في غاية الفخامة... وباتافيا مركز مهم لتصدير المطاط والشاي والعقاقير الطبية، وبها مكاتب وإدارات للشركات المختلفة، والبيوت المالية. وكان موضعها في العهد البوذي يسمى (سنوا كلافا).. ثمّ بعد إسلام سلطنة بانتام سماها مولا هداية الله: جاكرتا".(٤)

كما أنّ ذلك العنصر المكاني عادة ما يصبح مناسبة يستخدمها المؤلف لتقديم واحدة أو أكثر من (الشخصيات البارزة)، التي يقابلها في إحدى المدن أو القرى. ومن الملاحظ أن معظم تلك الشخصيات من وجهاء المولدين أو المهاجرين الحضارم في الأرخبيل الهندي. وجلهم من بين مضيفيه العلويين. ومع ذلك فهو ينتهز مناسبة حلول آخر أيام عام ١٩٣٥م، ليقدّم لنا في خمس صفحات الأستاذ رشيد رضا صاحب مجلة (المنار)، والشاعر العراقي عبد المحسن الكاظمي، لا لشيءٍ إلا لأنّهما توفيا في ذلك العام!

ويصوّر المؤلف بشكل دقيق احتفالات المهاجرين الحضارم، ومراسيم الزواج الخاصة بهم. ويعبر عن استيائه من عدم إحضارهم لزوجاتهم من حضرموت، ومن إقدامهم على إبعاد أبنائهم وبناتهم من أمهاتهم المحليات قائلا "ومن بواعث الحزن الممض في العادات الحضرمية الحياة العائلية في المهجر. فمن المعلوم أن الحضارم لم يهاجروا بعائلاتهم من حضرموت. فيستحيل أن تجد أحدا منهم أسعفه الحظ

واصطحب أهله إلى تلك البلاد، لأنهم يعدون هذا الشأن عارا عظيما. ومن المعروف كذلك أن الحضرمي لا يستطيع الصبر على العزوبية أو أن يبقى عليها مدة طويلة، لأنه محتاج إلى مساعد في نظام حياته وترتيب منزله؛ فهو مضطر إلى التزوج، ويتحمل محتارا تبعات الزواج التي من أهمها الأولاد. وبذلك يصير رب عائلة في الشرق الأقصى كما أنه رب أسرة في جزيرة العرب. ومن العجيب أنه حين يولد له طفل لا يفتأ يفكر في نقل عائلته إلى حضرموت بأية حيلة أو وسيلة. وليس المحزن ترحيل الذكور إذ من الممكن عودتهم، ولكن المحزن جدا نقل الإناث اللاتي لا يملكن حولا ولا قوة والتفريق بينهن وبين أقربائهن وأحبابهن يعتبر كالموت ومعناه الوداع الأخير. فكثير منهن من ترحل صغيرة وتبقى عشرات السنين بعيدة عن أمها أو جدتها أو غيرها، وتبق كذلك حتى تفارق إحداهما الدنيا. وقلت للزعيم الكبير فضيلة العلامة علوي بن طاهر مفتي جهور: كيف لو قدر الله أن الحضارم تعودوا منذ البدء السفر بنسائهم، وقلت له أنهم لو تعودوا ذلك لسلموا من مآسي الفراق المؤلمة،

وتبعات التفريق بين الأمهات وفلذات أكبادهن، ولتفادوا أن يعيش الواحد مقسم القلب بين شرق الأرض وغربها. فقال لي: وشيء آخر؛ لو قضى الله ذلك لأصبحت جاه كلها عربية، وهذه الكلمة غريبة وضخمة ولكن إذا أمعن الناظر الفكر وجدها صحيحة لا غبار عليها".(٥)

وفي هذا الجزء من كتابه يتناول صالح الحامد أيضا وبشيء من التفصيل الأسباب التي دفعت الحضارم إلى المجيء إلي جاوه، ويربط بين هجرتهم إليها في الماضي وبين وصول الإسلام إلى الأرخبيل الهندي. ومع ذلك نعتقد أنّ الصفحات الثمان المكرّسة لدخول الإسلام إلى جاوه – التي تحتوي أساسًا ملاحظات حول ما كتبه شكيب أرسلان عن كتاب فان دن بيرخ (حضرموت والمستوطنات العربية الأرخبيل الهندي)، وكتاب بيار غوناند (الاستعمار الهولندي لجاوه)، لا تكفي لتبرير تطويل عنوان الرحلة وجعله (رحلة جاوه الجميلة وقصة دخول الإسلام إلى شرق آسيا)، كما ورد في طبعة مركز تريم للدراسات والنشر.

أما بالنسبة للهجرة الحضرمية إلى جاوه في العصر الحديث، فيؤكد الحامد أن أعدادا كبيرة من جميع فئات المجتمع الحضرمي قد شاركت فيها وذلك هربا من "ضيق المعيشة في بلادهم وسعيا وراء التكسب والارتزاق في هذه الجزائر التي جمعوا بها الأموال وأعقبوا السلالات، وصارت لهم وطنا ثانيا، وغدت لهم بها جالية عربية تعد بعشرات الآلاف وحسبت لها الحكومة هناك في بعض العهود حسابا كبيرا، حتى غدت في حين من الأحيان لا ترتاح لوجودهم بين ظهراني الجاويين لكيلا تسري حنكة أولئك إلى هؤلاء. وصار الدكتور سنوك هورجرونجي يود لو لم تفتح لهم أبواب تلك الجزائر من الأصل".(٦)

كما تناول مؤلف (رحلة جاوه الجميلة) الدور الكبير الذي قام به الحضارم في سبيل تطوير التجارة والملاحة في الشرق وبيّن أنه "كان لجدهم ونشاطهم أن أصبحت سفنهم تجوب البحار بين تلك الجزائر. وبفضل تضامنهم واتفاقهم بقيت السيادة التجارية في أيديهم وغدا عليهم يدور محور التجارة

في تلك النواحي حينا من الزمن. فاجتمعت بأيديهم كلتا القيادتين: الدينية والتجارية وتمتعوا بهما زمنا رعوا فيه هاتين السياديتين حق رعايتهما لاقين من الحكومة المحلية احتراما بقدر ما لهم من إجلال لدى الوطنيين".(٧)

ثم يتحدث الحامد عن تراجع سمعة الحضارم ومكانتهم في جاوه في مطلع القرن العشرين، ويعزو ذلك إلى ثلاثة أسباب. يكمن السبب الأول منها في أن الموجات الأخيرة من الهجرة الحضرمية حملت إلى جاوه "عددا ليس بالقليل ممن ليس لهم في التفقه في الدين والتخلق بأخلاقه أي سهم، وبهم أصبح اسم العروبة الذي كان يحمل مثلا عاليا من الكرامة والتقوى يتضاءل ويتشوه بفعل ما تنتجه أخلاق وآداب هؤلاء من سيء الأثر في نفوس الوطنيين".(٨) ويرتبط السبب الثاني بمزاحمة الأوروبيين والصينيين للعرب الحضارم في الملاحة والتجارة، "ومازالوا يدفعونهم إلى الخلف حتى أصبحوا في آخر الصفوف في ميادين الأعمال والتجارة اللهم إلا الأفراد القليلين". أما السبب الثالث لتراجع سمعة العرب

في الأرخبيل الهندي فيكمن في بروز الصراع الشديد بين العرب الحضارم الساكنين هناك، إذ "نشأت روح الخلاف بين بعض الفئات، واستفحل شأنها حتى بلغت دور المهاترة والمشاتمة وتسويد الصحف بما يقشعر له جلد الشرف ويندى له جبين الكرامة العربية، فكان ذلك عاملا أكبر في تلاشي ما بقي للعرب في نفوس الوطنيين من احترم، وأصبح الجاوي لا ينظر للعربي تلك النظرة السالفة بل نظر إليه نظرة أخرى فيها ما فيها من معاني السخرية والاحتقار ... والحق أنه لو لم تنكب هذه الجالية بنكبة الافتراق، وفتنة الاختلاف وبقيت على اتحادها، مع تيار التطور ونباهة الكثير منهم ونشاطهم، لكان لهم شأن غير هذا الشأن، ولما فقدوا ما بقي من مكانتهم لدى الأهالي أولا ولدى الحكومة مراعاة لشعور الأهالي ثانيا، ولبقوا كما كانوا كبارا في الأعين، ملحوظين بنظر الإعظام والإكبار".(٩) ويضمّن المؤلف كتابه بعض الأحداث المؤلمة التي شاهدها والتي تبيّن أن هذا الصراع "العلوي-الإرشادي" كان في الحقيقة عميقا حتى أنه برزت هناك صراعات جانبية داخل كل فئة.(١٠)

ولا يفوت صالح بن علي الحامد، الذي كان حينها في الثانية والثلاثين فقط من عمره، أن يقابل عددا من المولدين الشباب ويناقش معهم بعض الخطوات التي قاموا بها بهدف تجاوز تلك المحنة والحصول على حقوقهم المدنية والاجتماعية والسياسية بصفتهم مواطنين إندونيسيين. ففي ١٤ فبراير من سنة ١٩٣٦ التقى المؤلف في أحد فنادق مدينة سربايا بعلوي بن شهاب، أحد أركان (حزب مواليد العرب في جاوه) ويروي لقائه به على النحو الآتي: "وجلست مع هذا الشاب وسألته عن مبدأ جمعيتهم وما سمعته عنها من التهم والتخرصات، فجعل يقص عليّ مبدأ جمعيتهم، وأن تلك التهم التي توجه إليهم من جهة أخوانهم العرب لا أساس لها. وقال إنهم لم يؤسسوا جمعيتهم إلا لأغراض حسنة؛ من أهمها حقوقهم في هذه البلاد إذ كان للمنتسبين إليها حقوق كافة المواطنين في الوظائف وغيرها، وفي هذا نجاح كبير في تشغيل العاطلين من أبناء العرب في هذه الجزائر. وقال: ومن أغراضنا أيضا نبذ السخائم والإحن التي بذرتها فتنة الإرشاديين والعلويين، والاتحاد للسعي إلى أهدافنا بصفوف

متراصة حتى ننال بغيتنا المنشودة، وشرح ما نتج عن ذلك من الفوائد ومن جملتها جمع الصدقات في رمضان وتوزيعها على العائلات العربية التي مستها الحاجة من غير تفريق بين علوي أو سواه. وقد قضينا فيما بيننا على ذكر التعصبات الناشئة عن تلك الفتنة وثبت لدينا اعتقاد أن تلك الفرقة لم تكن سوى مفسدة عظيمة كان يجب القضاء عليها وقبرها في مهدها. وأضاف: إن ما قيل من أننا نسعى في الانفصال عن العروبة وعن أنسابنا الحقيقية والاعتزاز بها فرية لا أصل لها اختلقها بعض المتفقين على التعصب والتحزب والحريصين علي بقاء النزعات العدائية بين أبناء الضاد لا غير"(١١)

وفي نهاية هذا التقديم نؤكد أنّ الشاعر الرحالة صالح بن علي الحامد قد استخدم في تحرير رحلته أسلوبًا أدبيًا حديثا يندر أن نجده في النصوص النثرية اليمنية الأخرى التي كتبت حينذاك أي في الثلاثينات من القرن الماضي. ولاشك أنّ الباحث عبد الله الحبشي محقٌ حينما كتب أنّ "رحلة الأديب اليمني الكبير صالح بن علي الحامد من الرحلات الأدبية القيمة، وهي

تتميز بالجمع بين الأسلوب الوصفي الحديث وبين جمال التعبير، وإشراق البيان، ولا غرابة في ذلك فكاتبها أحد الأدباء والكبار الذين قالوا الشعر الحديث، وجاروا فيه أصحاب المدرسة الحديثة في مصرَ والشام. ورحالتنا هو الرائد لهذا النوع من الأدب في اليمن. وتكاد رحلته إلى جاوه تكون الرحلة الوحيدة التي خطها يراع أديب يمني متمرس بفن الكتابة، ولذا فهي تنفرد عن زميلاتها بميزات لا نجدها في غيرها". ومن اللافت أن الأديب صالح بن علي الحامد لا يكتفي بقلمه فقط لرصد جمال المشاهد الطبيعية والإنسانية في جاوه بل يستخدم كذلك آلة التصوير التي لم تفارقه طوال الرحلة. كما أنّ هذا الشاعر الذي كثيرًا ما عبّر عن غرامه بسحر الطبيعة الجاوية في قصائده، لم يتردد أيضًا في البحث عن الجمال في المتاحف والمعابد التي زارها وأعجب بها ووصف ما تحتويه من تماثيل وراهبات بعيدًا عن أي تعصب. وقد ضمّن الناشر الكتاب عددا من الصور التي ألتقطها الحامد في أثناء رحلته، ومن بينها صورة لأحد المعابد البوذية.

الهوامش:

(١) صالح بن علي الحامد، رحلة جاوه الجميلة، مركز تريم للدراسات والنشر، تريم ٢٠٠٢. ص ٨-٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٤٢. وللحامد قصيدة بعنوان (عارية) ضمنها د. مبارك حسن خليفة دراسة له عن "المعجم عند الحامد"

(٤) المصدر نفسه، ص ٤٧.

(٥) المصدر نفسه، ص ٨٤-٨٥.

(٦) المصدر نفسه، ص ٣٨-٣٩.

(٧) المصدر نفسه، ص ٤٠.

(٨) المصدر نفسه، ص ٤٠.

(٩) المصدر نفسه، ص ٤٠-٤١.

(١٠)انظر مثلا الصفحات ٦٠-٦٢ من المصدر نفسه.

(١١)المصدر نفسه، ص ١٨٨-١٨٩.

سيرة المؤلف

أ.د. مسعود سعيد عمشوش.

من مواليد ١٩ ديسمبر عام ١٩٥٤، سيئون حضرموت.

الحالة الاجتماعية: متزوج وله بنتان وولد.

العمل: مدير مركز عبد الله فاضل للترجمة والدراسات الإنجليزية جامعة عدن – أستاذ الأدب العام والمقارن

المهام الإشرافية السابقة:

- النائب الأكاديمي -كلية الآداب جامعة عدن ٢٠٠٧-٢٠١٣
- رئيس قسم اللغة العربية، كلية الآداب جامعة عدن، من أكتوبر ٢٠٠٠ حتى فبراير ٢٠٠٧.
- رئيس قسم اللغة الفرنسية، كلية الآداب عدن، من ١٩٩٥ إلى سبتمبر ٢٠٠٠.
- رئيس قسم اللغة الفرنسية، كلية التربية عدن، من ١٩٩١ إلى ١٩٩٥.
- رئيس فريق الترجمة، جامعة عدن منذ يناير ١٩٩٧.

- عضو الأمانة العامة لاتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين منذ ٢٠١٠

- عضو المجلس التنفيذي لاتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين منذ مايو ٢٠٠٥.

- عضو هيئة تحرير مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية حتى عام ١٩٩٩.

- مدير تحرير مجلة (التواصل) من ١٩٩٧ إلى ٢٠١٧ .

- مدير معهد اللغات الأجنبية جامعة عدن من١٩٨١ إلى ١٩٨٤.

الشهادات العلمية:

١-دكتوراه في الأدب العام والمقارن، جامعة السوربون ١٩٨٨

٢-دبلوم الدراسات المعمقة في الأدب المقارن جامعة روان ١٩٨٥.

٣-متريز في الآداب الحديثة جامعة بوردو فرنسا ١٩٨١.

٤-ليسانس في الآداب الحديثة (عربي فرنسي) جامعة بوردو ١٩٨٠.

٥-دبلوم الدراسات الجامعية في الآداب الحديثة، جامعة بوردو ١٩٧٧.

٦-الدبلوم العالي في الدراسات الفرنسية، جامعة بوردو ١٩٧٦.

الشهادات التقديرية:

- شهادة المرتبة الأولى في امتحانات الثانوية العامة، ١٩٧٤.
- شهادة التفوق العلمي، ١٩٨٩.

من الأبحاث العلمية المقدمة في ندوات:

- "واقع مقررات الأدب في قسمي اللغة العربية-جامعة عدن" ندوة اللغة العربية والتعليم الجامعي" - الخرطوم، يوليو ٢٠٠٣.

- "معضلة السياق في الترجمة الآلية" الندوة الثالثة للتعريب، عدن-دمشق ٢٠٠٢.

- تدريس اللغات الأجنبية بين ضرورة الانفتاح على ثقافة الآخر وضرورة ترسيخ قيم الانتماء والهوية - الندوة التقويمية لتجربة كلية الآداب، عدن ٢٠٠٠.

- النقد الروائي في اليمن، مهرجان الأدب اليمني ، عدن نوفمبر ٢٠٠٥.

-المقامات اليمنية - ندوة اللغة العربية ١٩٨٩.

-حياة رامبو في عدن - ندوة رامبو وعدن ١٩٩٠.

-عدن مدينة كوسموبوليتية في كتابات الرحالة الفرنسيين - ندوة عدن ثغر اليمن ١٩٩٩.

-دور الترجمة في البحث العلمي - ندوة البحث العلمي في الجامعات اليمنية ١٩٩٩.

-موقع اللغات العربية الجنوبية الحديثة بين اللغات السامية، ندوة الألسنة واللهجات اليمنية ٢٠٠٠.

من الأبحاث العلمية المنشورة:

- اللغة والكلام والمعنى والدلالة ، في مجلة (الثقافة الجديدة) ١٩٨٣.

- المقامات اليمنية، مجلة (الحكمة) ١٩٩٠.

- تعثرات الرواية في اليمن، في مجلة (الثقافة الجديدة) ١٩٩١

- قراءة فرنسية للاحتلال البريطاني لعدن، في مجلة العلوم الإنسانية ١٩٩٧.

- صورتان لعدن في كتابات بول نيزان، في مجلة العلوم الإنسانية ٢٠٠٠.

كتب منشورة:

- عدن في كتابات الرحالة الفرنسيين، دار جامعة عدن للطباعة والنشر ٢٠٠٢.

- حضرموت في كتابات فريا ستارك، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ٢٠٠٤.

- الحضارم في الأرخبيل الهندي، دار جامعة عدن للطباعة والنشر ٢٠٠٧، (تحصل على جائزة جامعة عدن لأفضل كتاب في العلوم الإنسانية عام ٢٠٠٨).

- صورة اليمن في كتابات الغربيين: دراسات في تمثيل الآخر، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ٢٠١٠.

- المستكشف هاري سانت جون فيلبي ورحلته إلى حضرموت، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ٢٠١٢.

- تعز في كتاب إيفا هوك: شاهدتُ اليمن من دون حجاب، طبيبة بين الشرق والغرب، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ٢٠١٢.

وأشـرفت علـى عـدد مـن الرسـائل العلميـة، وشـارك فـي تحكـيم جـائزة المرحوم أنعم سعيد هائل للعلوم والآداب، وفي مناقشة عدد من رسـائل الماجستير والدكتوراه في مختلف الجامعات اليمنية.